

طيور العودة

قصص من فلسطين

عربي ـ فرنسي

ليانا بدر ـ معين بسيسو ـ زين العابدين الحسيني ـ
توفيق زياد ـ توفيق فياض ـ غسان كنفاني ـ يحيى يخلف

رسوم = لورا روزانو

éditions messidor / la farandole

منشورات ميسيدور ـ لافاراندول ١٩٩١

انتهى طبعه في سبتمبر ١٩٩١
لحساب منشورات ميسيدور ـ لافاراندول
بمطبعة ساداك ببلغارد (آن)
رقم الايداع القانوني سبتمبر ١٩٩١
قانون رقم: ٤٩٩٥٦ لـ. ١٦٠٧٤٩
المتعلق بالمطبوعات الموجهة للشبيبة
رقم النشر
ISBN 2-209-06589-5

طيور العودة

قصص من فلسطين (عربي - فرنسي)

ترجمة جوسلين وعبداللطيف اللعبي



زين العابدين الحسيني - ليانا بدر - معين بسيسو - توفيق فياض - غسان كنفاني - يحيى يخلف - توفيق زياد

رسوم = لورا روزانو

منشورات ميسيدور - لافاراندول

١٤٦، شارع فوبور بواسونيير - باريس ٧٥٠١٠

معين بسيسو

ولد في غزة عام ١٩٣٧ . شاعر ومؤلف مسرحي . قضى معظم الخمسينيات في السجن. ثم رحل الى القاهرة وبعدها الى بغداد، بيروت، دمشق، موسكو وأخيراً إلى لندن حيث توفي فجأة عام ١٩٨٤ .

عودة الطائر

وانْطَلَقَتْ تِلْكَ الطُّيورُ، عَائدةً إلى أَعشاشِهَا، بَعْدَ أَنْ مَلأَتْ حَواصِلَها بالقَمْح

. . . وفَجأَةً هَبَّت العَاصِفَةُ، وتَحَوَّلَ لَوْنُ السُحُب مِنَ اللَّونِ الأبيَضِ إلى اللَّوْنِ الأَسْوَدِ . . .

وضَرَبَت الرِّياحُ العَنيفَةُ أَحَدَ الطُّيور . . فإذا به يَسْقُطُ وقَدْ تَناثَرَ ريشُهُ في الهَواءِ

وسَقَطَ الطَّائِرُ العُرْيانُ بَيْنَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الأَشْجَارِ . . . ولَمْ يَعُدْ في صَدْرِهِ أَوْ في جَناحَيْهِ رِيشَةٌ واحِدَةٌ

وراحَتْ بَعْضُ الطُّيور الجارِحَةِ تَحُومُ فَوْقَ الطَّائِرِ،

وتُوشِكُ أن تَنْقَضَّ عَلَيْه بِمَناقِيرِهَا، وبِجَناحِه العُريانِ راحَ يُقَاوِمُهَا

وَانْطَلَقَتِ الطُّيورُ تَبْحَثُ عَنْ ذَلِكَ الطَّائِرِ العُرْيانِ . . . هُنا وَهُناكَ . . . وَقَدْ أَوْشَكَ أَحَدُ الطُّيُورِ الجَارِحَةِ أَنْ يَضْرِبَهُ بِمِنْقَارِه .

وَعَثَرَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الطُّيُور عَلى الطَّائِرِ العُرْيانِ، وَهُوَ تَحْتَ جِذْعِ شَجَرَةٍ يُقاتِلُ وَحيداً فاتَّجَهَتْ إليه .

وَالْتَفَّتْ مَجْمُوعَةُ الطُّيُورِ حَوْلَ الطَّائِرِ العُرْيانِ، وَقَدْ أَبْعَدَتْ عَنْهُ الطُّيُورَ الجارِحَة .

وَراحَ كُلُّ طَائِرٍ يَغْرِسُ مِنْقارَهُ في جَنَاحِهِ، وَيَنْتَزِعُ مِنْهُ رِيشة وأَخَذَ كُلُّ طائِرٍ يَتَقَدَّمُ بالرِّيشَةِ في مِنْقَارِهِ ويَغْرِسُهَا في صَدْرِ الطائِرِ العُرْيَانِ وجَنَاحَيْه .

واكْتَسَى الطَّائِرُ العُرْيانُ بالرِّيشِ . . . وفَرَدَ جَنَاحَيْهِ وعَادَ يُواصِلُ طَيَرانَهُ مَعَ الطُّيُور .





غسان كنفاني

ولـد في عكـا عام ١٩٣٦. نزح عام ١٩٤٨ إلى سوريا، ثم الكـويت وأخـيراً لبنـان. ألف عدة روايات ومجمــوعــات قصصية ودراســات حول الثقافة الفلسطينية ـ كان مديراً لجريدة فلسطينية هامة. تم اغتياله من طرف المخابرات الاسرائيلية في الثامن من يونيو عام ١٩٧٢.

القنديل الصغير

صحَت المدينةُ ذاتَ صباحٍ على خبرٍ أليمٍ مُحْزِنٍ: لقد مات المَلكُ الطيِّبُ العجـوزُ الذي حَكم طَوالَ عُمرِه بالعدلِ وأحبَّه كافةُ الناس... وقد حزنَ الجميعُ أكثَر لأنَّ المَلكَ لم يكن قد تركَ سَوى ابنةٍ صغيرةٍ ليسَ بوسعِها أن تحكُمَ... ولكنَّ الملكَ كان قد تركَ أيضاً وصيةً لابنته الصغيرة قال فيها شيئاً قليلاً جداً...

قالَ كي تُصبحي ملكةً يجبُ أن تحملي الشمس إلى القصر

وقال الملكُ في وصيته القصيرةِ أيضاً «واذا لم تستطيعي حَمْلَ الشمسِ إلى القصرِ فإنَّكِ ستقضـينَ حياتَكِ في صُندوقٍ خشبيٍ مُغلَقٍ عِقاباً «لك» وبعد أنْ قرأتِ الأميرةُ الصغـيرةُ الـوصيةَ استدعَتْ حكيمَ القصرِ وأخبرتهُ أن أبـاهـا قد كلَّفها بمُهمَّةٍ عسيرةٍ وأنَّها لا تريدُ أن تكون ملكـةً أبـداً»... إلا أنَّ الحكيم العجوزَ قالَ لها: ان قوانين المملكةِ المكتوبةِ منذُ زمنٍ بعيدٍ تُحرِّمُ على الأمير أو الأميرة أن يرفضا الحُكْم وقال الحكيمُ العجوزُ:

«إن ابنةَ المَلِكِ لا تستطيعُ إلا أن تكونَ أميرةً... وقد عاشتْ مملكتُنا بسعادة دائمة لأن كلَّ واحدٍ فيها يعرفُ واجبهُ ولا يهربُ منه، وقد كَانَ والدُكِ الملكُ حكيماً حَينَ قالَ لكِ إنَّ عَليكِ إحضارَ الشمس إلى القصرِ او العيشَ في صَنـدوق وفي صبـاحِ اليومِ التالي قَررتِ الأميرة ان تَتسلَّق الجبل العالي الذي تمرُّ من جانبه الشمسُ في كلِّ يوم، وقد سألتِ الأميرةُ الحكيمَ عن رأيهِ في خُطَّتِها فقالَ لها الحكيمُ: «أيتهـا الأمـيرة الصغيرة يَجبُ أنْ تُحضِري الشمسَ دونَ مساعدةِ أحَد».

وهكـذا بدأت الأمـيرة تتسلقُ الجَبَل العالي... ولكنَّ الأميرة حين وصلت إلى قمة الجبل اكتشفَت أنَّ الشمسَ ما تزالُ بعيـدةً وأنــه لا يمكن لإنسـانٍ أن يُمْسِـكَ الشَمسَ... فعادَتْ إلى القصر حزينةً وأغلقتْ غرفتَها بالمَفْتاحِ وأخذَتْ تبكي.

وبعدِ يومين شاهدَت الأميرةُ الحزينةُ ورقةً صغيرةً تحت بابِ غرفتِها فركضَتْ وأخذَتْ تقرؤُها . . .
كانَ فيهـا جُملةٌ صغيرةٌ هي: «لن تستطيعي أن تجدي الشمسَ في غرفة مُغْلَقةٍ» واحتارت الأميرةُ لأنّها لم تعرف صاحبَ الخطِّ الذي كتب تلكَ الجُملةَ الصغيرةَ، ولكنَّها قررتْ أنْ تُواصِـلَ بحثَهـا عنَ الشمسِ ولـو اضْطُرَّتْ لتسلُّق الجبلِ كلَّ يوم . . .
وفي الـوقت نفسـه علَّقتِ الأمـيرةُ على جدران القصر الخـارجية بيانـاً قالت فيه إنَّ أيَّ رجـلٍ يَستـطيع أن يُساعِدهَا في حَمْلِ الشمسِ إلى القصرِ سينالُ مكافأةً من المجوهرات . . .
وفي أيام قليلة عَرفَ كلُّ الناس أنَّ الأميرةَ الصغيرةَ تريدُ حَمْلَ الشمسِ إلى القصرِ، ولكنَّ أحـداً لم يَسْتـطِعْ أن يُسـاعـدَها، وقرر بعضُ الناس أنَّ الأميرةَ مجنونةٌ لأنها تطمعُ في شيءٍ مستحيل، وقرَّرَ آخرون أنَّها أميرةٌ حكيمةٌ لأنَّها تريد ان تُحقِّـقَ شيئـاً «مـستحيلاً» ولكنّ الجميعَ عجزوا عن مساعدَتِها . . .
وفي صباحِ اليوم التالي جاءَ الحكيمُ العجوزُ إلى الأميرة وقال لها إنَّ الفرصةَ التي أُعطِيتْ لها تُوشِكُ ان تنتهيَ، وشرحَ العجـوز ذلـك فقـال: «إنَّ أباكَ الملكَ كان قد أوصـاني قبـلَ وفاته ان أُشْعلَ شمعةً كبيرةً مباشرةً بعد وفاتِه، فإذا ذابَتْ قبلَ ان تهتدي إلى الشمس فان عقابَك يصيرُ واجباً . . .»
وحين خرج الحكيمُ من الغرفة حزنتِ الأميرةُ حزناً شديداً وعرفت أنه لن يتيسّر لها أبداً أن تصيرَ ملكةً، وأخذتْ تتخيَّلُ نفسَهـا في الملابس الملكية التي لن تستطيعَ أن تلبسَها أبداً . . .
وبينما هي غارقة في حُزنِها كان رجلٌ عجوزٌ جداً يحاولُ أن يَدْخُـلَ إلى القصرِ، ولَكنَّ الحُـرّاسَ كانـوا يمنعونَه من الدُخول ويحاولونَ طردَه بشتّى الوسائلِ، إلا أنَّ العجوزَ كان عنيداً . . .
وشهـدت الأمـيرةُ من شبـاكَ غُرفتِهـا ذلكَ المنظَر، ثم سمعتْ صوتَ العجوز يصيحُ بالحرس:
- «أُريدُ أن أدخُلَ لأُساعِدَ الأميرةَ»
وسمعتْ صوت الحرس:
- «هلْ تستطيعُ أن تساعدَها أنتَ أيّها العجوزُ الهَرِمُ؟»
وعادَتْ تسمعُ صوتَ العجوز وهو يصيحُ:
- «حسناً . . . قولوا لها إنه اذا لم يكُن بوسعِ انسانٍ عجوزٍ ان يَدْخُلَ إلى قصرِهَا فكيف تطمعُ أن تُدْخِلَ الشمسَ اليه؟»
وفي تلك اللحظةِ أدارَ العجوزُ ظهرهُ ومضى، وحاولتِ الأمـيرةُ أن تُنـاديَه إلاّ أنَّـه كان قد اختفى في الـزّقـاقِ المجاور، وحين طَلَبَتْ منَ الحرسِ أن يبحثوا عنه كانَ العجوزُ قد صار بعيداً جداً . . .
عادتِ الأميرةُ إلى غُرفتِها حزينةً يائسةً. وأخذتْ تُفكِّر فيما قالَهُ العجوزُ للحرّاسِ. إلاّ أنَّها لم تستطعْ ان تعرفَ ما الذي قَصَدَهُ . . .
وفجأةً قررت أن تستدعيَ قائدَ الحرس.
كان قائدُ الحرسِ رجلاً قوياً خَدَمَ في القصرِ أكثر من عَشْرِ سنوات، وحينَ دخلَ إلى الغرفة سألَتْهُ عَنِ الرجلِ العجوز الذي طردَهُ الحرّاسُ، وهل جاءَ إلى القصرِ قبلَ ذلك؟



فقال قائدُ الحرس : إنّ الرجلَ العجوزَ يأتي كلَّ مساءٍ، إلا أنَّ الحراسَ يمنعونَه من الدخول لأنّهم يعتقدونَ أنه رجلٌ مجنونٌ. . .
قالت الأميرةُ: «صِفْهُ لي» فقال القائدُ:
«إنه رجلٌ فقيرٌ يحملُ قنديلاً صغيراً دائماً. . .»
قالت الأميرةُ: «إذا جاء الرجلُ العجوزُ غداً. . . فاسمحوا له أن يَدخُلَ» إلا أنَّ الرجلَ العجوز لم يأتِ في اليوم التالي وعادَت الأميرةُ إلى حُزنها ويأسِها. . .
وبينما كانت الأميرةُ في غرفتها تبكي شاهدت ورقة أخرى تحت الباب. فركضتْ اليها وفتحتْها وقرأتْ فيها:
«الوقت ضيّقٌ. . . الشمعةُ الكبيرةُ على وَشْكِ أن تذوب. إن البكاءَ والحزن لا يحلّان المشاكل». . .
أحسّتِ الأميرةُ الصغيرةُ بأنها يجبُ أن تفعلَ شيئاً وإلا قَضَتْ حياتَها في صُندوق مُغلق، وفجأةً استدعَتْ قائدَ الحرس وقالت له:
- «أريدُ أن تُحضِروا إلى القصرِ كلَّ رجلٍ في المملكة يحملُ قنديلاً صغيراً. . .» فقال قائدُ الحرسِ متعجباً:
- «كلُّ ذلك من أجل العجوز المجنون؟». فقالت الأميرة:
- «يجبُ ان أُجرّب ذلكَ العجوزَ فقد يكونُ الحلُّ عندَه»
وفي الصباح الباكر وزّع قائدُ الحرس كلَّ الحُراس في جميع أرجاء المملكة وأَمرَهُمْ ان ينتظروا حتى المساء، فإذا حلَّ الظّلامُ فانَّ عليهم أن يُلقوا القبضَ على كلِّ رجلٍ يحملُ فانوساً صغيراً وأنْ يرسلوه فوراً إلى القصر. . .
وعندَ المساءِ جلستِ الأميرةُ أمامَ النافذةِ تنظرُ إلى الشارع، وتنتظرُ قدومَ الرجالِ الذينَ يحملونَ القناديلَ الصغيرة. . . وفجأةً شاهدَت الأميرةُ منظراً عجيباً، ففي الأُفق المُظلم البعيدِ كان آلافُ الرجالِ يحملونَ القناديل ويتقدمونَ نحو القصرِ من كافّةِ النواحي. . . وبعد قليلٍ وصلَ الجميعُ إلى أبواب القصر التي كانتْ صغيرةً ومُغْلَقَةً، وازدحموا أمامَها.
وفي كلِّ لحظةٍ كان الرجال حَمَلَةُ القناديلِ يتكاثرونَ دونَ أن يستطيعوا الدخول بسبب الأبواب الصَغيرة، فطلبتِ الأميرة من الخَدم أن يَهْدِموا الأسوار العالية، وأن يُوَسِّعوا الأبوابَ كي يتيسَّرَ للجميعِ الدخولُ إلى باحةِ القصر. . .
ونزلت الأميرةُ من غرفتها إلى باحة القصر وإلى جانبها قائدُ الحرس لِيَدُلّها على الرجلِ العجوز، وحين وصلت إلى الباحةِ كان الضوءُ يتوهّج كأنه الشمسُ لكثرةِ الرجالِ والقناديل، وقال قائدُ الحرس :
«أيتها الأميرةُ، لن أستطيعَ أن أتعرفَ على العجوزِ لأنّ الوجوهَ جميعَها هنا تتشابهُ. . .»
وكانت الأميرةُ لا تستطيع أن تفتح عينها جيداً لكثرةِ الضوء. وقالت لقائدِ الحرس : «لم أكنْ أتصورُ أنّه يوجدُ في مملكتي كلُّ هذه القناديل» فقال قائدُ الحرس : «إنّهم يخافون من اللصوص» إلا أنّ الحكيمَ العجوزَ قالَ: «كلا. . . حينَ يهبطُ الظلامُ يحملُ كلُّ رجلٍ قنديلَهُ الصغيرَ ليَتعَرَّفَ على طريقِه. . .»
ونَظر الحكيمُ العجُوز إلى الأميرةِ وقالَ: «هل تستطيعينَ أنْ تحملي كلَّ هذهِ القناديلَ دَفعةً واحدةً؟»
قالت الأميرة: «طبعاً، لا»

فقالَ الحكيمُ «وكذلك الشمسُ. . . إنها أكبرُ من أن يُمْسكَها رجلٌ واحدٌ أو امرأةٌ واحدةٌ. . . » قالتِ الأميرةُ: «لقَدْ فهمتُ كلَّ شيءٍ الآن. . . إنّ القناديلَ الصغيرةَ مجتمعةً هي الشمسُ التي قَصَدَها والدي» فقالَ الحكيمُ: «نعم، ولكنْ انظُري إلى هناك» وأشارَ إلى النافذة، كانت الشمسُ قد بدأت تُشْرقُ وتَدْخلُ أشعَّتُها إلى القصر، وصاحتِ الأميرةُ «شيءٌ عجيبٌ، هذا يحدثُ لأولِ مرةٍ». فقالَ الحكيم:

«نعم هذا يحدثُ لأولِ مرةٍ لأنّكِ هدمت الأسوار والأبواب. . . هل نسيت؟ لقد كانتْ تلكَ الأسوارُ هي التي تَحْجُبُ أشِعَّةَ الشمس وتمنعُها من دخول القصر. . . ». وبعد لحظة ألْبَسَها الحكيمُ التّاج المزنّر بالجواهر وقالَ لها: «أصبحتِ ملكة لأنك نفّذتِ وصيّةَ والدك واستطعت ان تحملي الشمس إلى القصر.



يحيى يخلف

ولد في سمخ، قضاء طبريا عام ١٩٤٤ . غادر فلسطين ولجأ للأردن عام ١٩٤٨ ، بعدها عاش في سوريا ثم في لبنان والجزائر، قبل ان يستقر في تونس، الف عدة روايات ومجموعات قصصية .

ساق القصب

هَبَّت الرياحُ القويَّةُ فاقْتلعتْ ساقَ القَصبِ مِنَ الأرض ، وحملتْها بعيداً .

كانتْ ساقاً فارغةً مُجوَّفَةً خفيفَةً، تنتقلُ من مكانٍ إلى مكانٍ، وكانَتْ ترى أن الأشْجار تحمِلُ الثمارَ اللذيذةَ. والطُّيورَ الجميلةَ تُغرِّدُ. والنهرَ يسقي الناسَ. والغُيومَ تُمْطِرُ فتَسقي الزَّرْعَ .

فتحسَبُ أنَّ كلَّ الأشياءِ لها فائدةٌ، إلاّ هيَ .

تمَنَّتْ ساقُ القصبِ ان تُصْبِحَ شيئاً نافِعاً، واخيراً أوصلَتها الرياحُ إلى أحدِ الحُقولِ ، كانَ صاحِبُ الحَقلِ يَحْرُثُ الأرضَ بمحْراثٍ يجرُّهُ ثورٌ، وعندما وقَعَ بصرُهُ على ساقِ القَصبِ قالَ: «هذهِ الساقُ تَنْفَعُني، أستطيعُ أن أضْرِبَ بها الثَّورَ إذا توقَّفَ عن العملِ فيَمشي» .

وهكذا تحوَّلَتْ ساقُ القصبِ إلى عصا في يدِ صاحبِ الأرض .

لكنها حَزنت، لأنها لا تريدُ أنْ تكونَ شيئاً مُؤْذياً .

لذلكَ، حينَ هبَّتِ الرياحُ ذَهَبتْ ساقُ القصبِ معها إلى مكانٍ آخرَ.

ألْقَتِ الرّياحُ بساقِ القَصبِ أمامَ صيَّادِ العصافيرِ.

هَجَمَ عليها صَيَّادُ العَصافيرِ، وأمْسكَ بها قائلاً :

غداً أكسرُ هذه السَّاقِ، وأصْنعُ منها قَفَصاً أضَعُ فيه العصافيرَ الحيَّةَ التي أصْطادُها» .

حزنتْ ساقُ القصبِ، لأنها ستُصْبِحُ سِجْناً للعَصافيرِ، وهي لا تُريدُ أنْ تُصبحَ شيئاً مُؤذياً .

وما أنْ وضَعَها الصيادُ على الأرضِ حتى حَملتْها الرياحُ، من جديد، إلى مكانٍ آخرَ.

ألْقَتِ الرياحُ بها أمامَ أطْفالٍ يَلعبونَ في سَاحةِ القَريةِ، فَهجَمَ عليها الأطْفالُ يَلْهونَ بها، وجَعَلوا يَمْتطونَها كما لَو كانَتْ فرساً.

فرِحَتْ ساقُ القصبِ. فها هي تُدْخِلُ السَّعادَةَ إلى قُلوبِ الأطفالِ . إلَّا أنَّ سعادتها لَمْ تكْتَمِلْ، إذْ داسَ عليهاً أحدُ الأطفالِ ، عَنْ غيرِ قَصْدٍ، فانْكَسَرتْ إلى قِسْمين .

حَزنتْ ساقُ القصبِ المَكْسُورةُ، لأنها لم تَعُدْ صَالِحةً.
عندما عادَ الأطفالُ إلى بُيوتهم، جاءَ راعي الغنمِ، فأبْصرَ ساقَ القصبِ المكسورة حزينةً، فانْحنى والْتَقَطَ قِسْماً منها.
وَصَلَ الرَّاعي إلى بيته، فتناولَ السِّكين، وأخَذَ يُقَلِّمُ طَرَفَيْ قِطعةِ السَّاق، ثُمَّ صنعَ لها عيوناً عِدَّةً، وما هي إلاّ ساعةٌ حتى أصْبَحَتْ ساقُ القصبِ المكسورةُ شَبَّابةً ذات شكلٍ جميل.
حَمَلَ الرَّاعي الشَّبَّابةَ بِيديهِ ثم قَرَّبها مِنْ فَمِهِ وأخَذَ يَعزفُ عَلَيْها لَحْناً مَرحاً.
عنـدَ ذلـكَ فَرحَتْ ساقُ القصبِ فَرَحاً كبيراً. لقدْ أصْبحتْ شيئاً نافعاً.





توفيق زياد

ولد في الناصرة عام ١٩٣٢ وهو يعيش فيها إلى اليوم. وقد انتخب عمدة لهذه المدينة منذ السبعينيات. أعماله شعرية بالأساس. ترجم للعربية عدة مؤلفين روسيين وكذلك أعمال الشاعر التركي ناظم حكمت.

الصياد وديك الحجل

كَانَ عَبَّاسٌ أَشْهَرُ صَيَّادٍ فِي النَّاحِيَة. وَعِنْدَمَا كَانَتْ تُقَامُ مُسَابَقَاتُ ضَرْبِ النَّارِ فِي سَاحَةِ سُوقِ «الإِثْنَين»، كَانَ الآخَرُونَ يَتَسَابَقُونَ عَلَى المَرْكَزِ الثَّانِي، أَمَّا المَرْكَزُ الأَوَّلُ فَكَانَ مَحْجُوزاً لِعَبَّاس.

وَعِنْدَمَا يَأْتِي دَوْرُ عَبَّاس، كَانَ الجَمِيعُ يَتَرَاصُّونَ حَوْلَهُ فِي حُدْوَةٍ بَشَرِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، وَحِينَ يُصَوِّبُ بُنْدُقِيَّتَهُ، يَكْتُمُ الجَمِيعُ أَنْفَاسَهُم... وَعِنْدَمَا تُعْلَنُ النَّتِيجَةُ كَانَ يَنْفَجِرُ الهُتَافُ، وَمَعَهُ تَنْفَجِرُ فَرْحَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ حَقِيقِيَّة. كَانَ الصَّيْدُ مَلْهَاتَهُ الوَحِيدَةَ، وَمِنْ بَين كُلِّ الطُّيُور، كَانَ يَرَى أَنَّ الحَجَلَ وَحْدَهُ هُوَ الجَدِيرُ بِالصَّيد.

وفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، وَهُوَ عَائِدٌ مِنَ الصَّيد، إِلتَقَى عَبَّاسٌ بِجَارٍ لَهُ كَانَ عَائِداً مِنَ الصَّيد. كَانَ عَدَدُ طُيُورِ الحَجَلِ الَّتِي صَادَهَا جَارُهُ، أَكْثَرَ مِنْ ضِعْفِ مَا صَادَ هُوَ. وبِالطَّبْعِ فَرِحَ لِجَارِهِ وَهَنَّأَه.

وَالحَقُّ يُقَالُ إِنَّ الأَمْرَ أَثَارَ دَهْشَتَهُ، ذَلِكَ لأَنَّ جَارَهُ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ صَيَّادٍ عَادِي.

فَقَرَّرَ أَنْ يَزُورَ جَارَهُ وَيَسْأَلَهُ عَنْ سِرِّ ذَلِك.

وَبِالفِعْلِ حَمَلَ مَعَهُ سِفْطاً مِنَ الحَلْوَى، هَدِيَّةً لِجَارِه، وَرَاحَ يَزُورُه. إِسْتَقْبَلَهُ الجَارُ بِتَحَفُّظٍ وَارْتِبَاكٍ ظَاهِرَيْن.

وَبَعْدَ السَّلام، دَارَ بَيْنَهُمَا الحِوَارُ التَّالِي:

- مَنْ هُوَ أَشْهَرُ وَأَمْهَرُ صَيَّادٍ فِي النَّاحِيَة؟ سَأَلَ عَبَّاسٌ جَارَه.

- أَنْتَ وَلا شَكّ. أَجَابَهُ جَارُهُ بِلا تَرَدُّد.

- إِذَنْ قُلْ لِي: كَيْفَ تَعُودُ مِنَ الصَّيْدِ بِعَدَدٍ مِنَ الحِجَالِ أَكْبَرَ مِنَ الَّذِي أَعُودُ بِهِ أَنَا؟

وَضَحِكَ الجَارُ ضِحْكَةً خَافِتَةً تُشْبِهُ فَحِيحَ الأَفْعَى وَقَالَ:

- أَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِف؟

- نَعَم... إِنَّنِي فَرِحٌ جِداً لَك، وَلَكِنَّ الأَمْرَ غَيْرُ مَفْهُوم.

- حَسَناً، تَعَالَ مَعِي غَداً لِلصَّيْدِ وَسَتَعْرِفُ السِّر.

وفِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي خَرَجَا مَعاً لِلصَّيْدِ، وَعِنْدَمَا

وَصَلا إلى النَّاحيَةِ الَّتي قَصَدَاها، تَنَاوَلَ الجارُ مخلاةً كانَ يُعَلِّقُها عَلَى كَتِفه وَأَخْرَجَ مِنْهَا ديكاً حَياً مِنَ الحَجَل. أَمَّا عَبَّاسٌ فَقَدْ رَاحَ يَنْظُرُ، دُونَ أَنْ يَفْهَمَ شَيْئاً، إلى ديكِ الحَجَل... وَقَالَ لجاره:

ـ وَلَكِنْ لِماذا أَحْضَرْتَ ديكَ الحَجَلِ هذا مَعَكَ؟

ـ إِنْتَظِرْ وَسَتَفْهَم. أَجَابَ جارُهُ، ثُمَّ أَخَذَ يَهُزُّ الدِّيكَ الَّذي رَاحَ يخفقُ بِجَناحَيْهِ وَيُصَوِّتُ... كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِصُعُوبَةٍ لِشِدَّةِ سُمْنَته.

بَعْدَ لَحَظَاتٍ بَدَأَتْ تُسْمَعُ أَصْواتُ طُيُورِ الحَجَلِ مِنْ عِدَّةِ نَواحٍ... ثُمَّ أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ مِنَ الصَّيَّادَيْنِ.

ـ هَيَّا. قَالَ الصَّيَّادُ الآخَرُ لِعَبَّاسٍ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ بُنْدُقِيَّتَهُ وَيُصَوِّبُهَا إلى أَحَدِ الطُّيُورِ الَّتي أَصْبَحَتْ قَرِيبَةً جداً، وَيَضْغَطُ الزِّنادَ، وَمَعَ صَوْتِ الرَّصاصَةِ سَقَطَتْ حَجَلَةٌ مُضَرَّجَةً بِدَمِها. وَأَمَّا عَبَّاسٌ فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً!

وَضَعَ الصَّيَّادُ الآخَرُ الحَجَلَةَ القَتيلَةَ في مخلاته، ثُمَّ وَضَعَ ديكَهُ عَلَى كَفِّهِ وَراحَ يَهُزُّهُ وَهُوَ يُصَوِّتُ وَيَخْفِقُ بِجناحَيْه.

وَتَكَرَّرَ المَشْهَدُ، وَسَقَطَتْ حَجَلَةٌ ثانيةٌ مُضَرَّجَةً بِدَمِها...

وَلَمْ يَفْعَلْ عَبَّاسٌ شَيْئاً، كَانَ لا يَزالُ يَنْظُرُ إلى ديكِ الحَجَلِ الأَليفِ السَّمين، وَشُعُورٌ غَريبٌ يَتَمَلَّكُه.

ـ الآنَ، يا عَبَّاسُ، هَلْ عَرَفْتَ لِماذا أَعُودُ أَنا بِصَيدٍ أَوْفَر؟ قَالَ الصَّيَّادُ الآخَرُ، ثُمَّ أَشارَ إلى ديكه الأَليفِ وَتابَعَ:

ـ لَمْ أُمسِكْ به فَرْخاً. مَرَّةً كُنْتُ في الصَّيدِ، وَأَطْلَقْتَ النَّارَ عَلَيْهِ فَسَقَطَ. لَمْ يَكُنْ قَدْ أُصيبَ بِرَصاصَتي... يَظْهَرُ أَنَّهُ سَقَطَ مِنَ الخَوْف. أَخَذْتُهُ وَوَفَّرْتُ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ، لأَنِّي تَوَسَّمْتُ فيه خيراً...

لَقَدْ عَلَفْتُهُ كَثيراً جداً حَتَّى أَصْبَحَ عاجزاً عَنِ الطَّيران. وَعِنْدَما أَذْهَبُ إلى الصَّيدِ آخُذُهُ مَعي فَلا أَحْتاجُ إلى البَحْثِ عَنِ الحَجَلِ... فَهُوَ يَسْتَدعِيه! وَعَلَى صَوْتِه يَبْدَأُ الحَجَلُ بالاقْتِراب... هَلْ فَهِمْتَ؟

ـ نَعَمْ... فَهِمْتُ، وَلَكِنْ هَذِهِ طَرِيقَةٌ غَيْرُ شَريفَة. قَالَ عَبّاس.

ـ وَمَاذا يَهُمُّ؟ المُهِمُّ أَنْ أَعُودَ بِصَيدٍ وَافِرٍ ـ قَالَ جارُهُ ـ إِنَّها طَريقَةٌ لا تخيبُ... هه؟

وَراحَ عَبَّاسٌ يُنَقِّلُ نَظَرَهُ مِنْ جارِهِ إلى الدِّيكِ الَّذي كانَ يَبْتَسِمُ ابْتِسامَةً بَلْهاء...

وَبِحَرَكَةٍ لا شُعُوريَّةٍ، أَدارَ ماسُورَةَ البُنْدُقِيَّةِ نَحْوَ الدِّيكِ، وَضَغَطَ عَلَى الزِّنادِ ضَغْطَةً شَحَنَها بِاشْمِئْزازٍ كَبيرٍ، وَانْطَلَقَتْ رَصاصَةٌ، وَعَبَّاسٌ ما زالَ يُتَمْتِمُ:

ـ هَذا جاسُوسٌ يجْني عَلَى بَني جِنْسِه...

وَلَمْ يَبْدُ عَلَى ديكِ الحَجَلِ السَّمينِ أَيُّ أَلَمٍ وَهُوَ يَسْقُطُ مُضَرَّجاً بِدَمِه. كَانَ يَمُوتُ بِهُدُوءٍ، وَهُوَ ما زالَ يَبْتَسِمُ نَفْسَ ابْتِسامَتِهِ البَلْهاءِ وَكَأَنَّهُ يَسْتَجْدي.



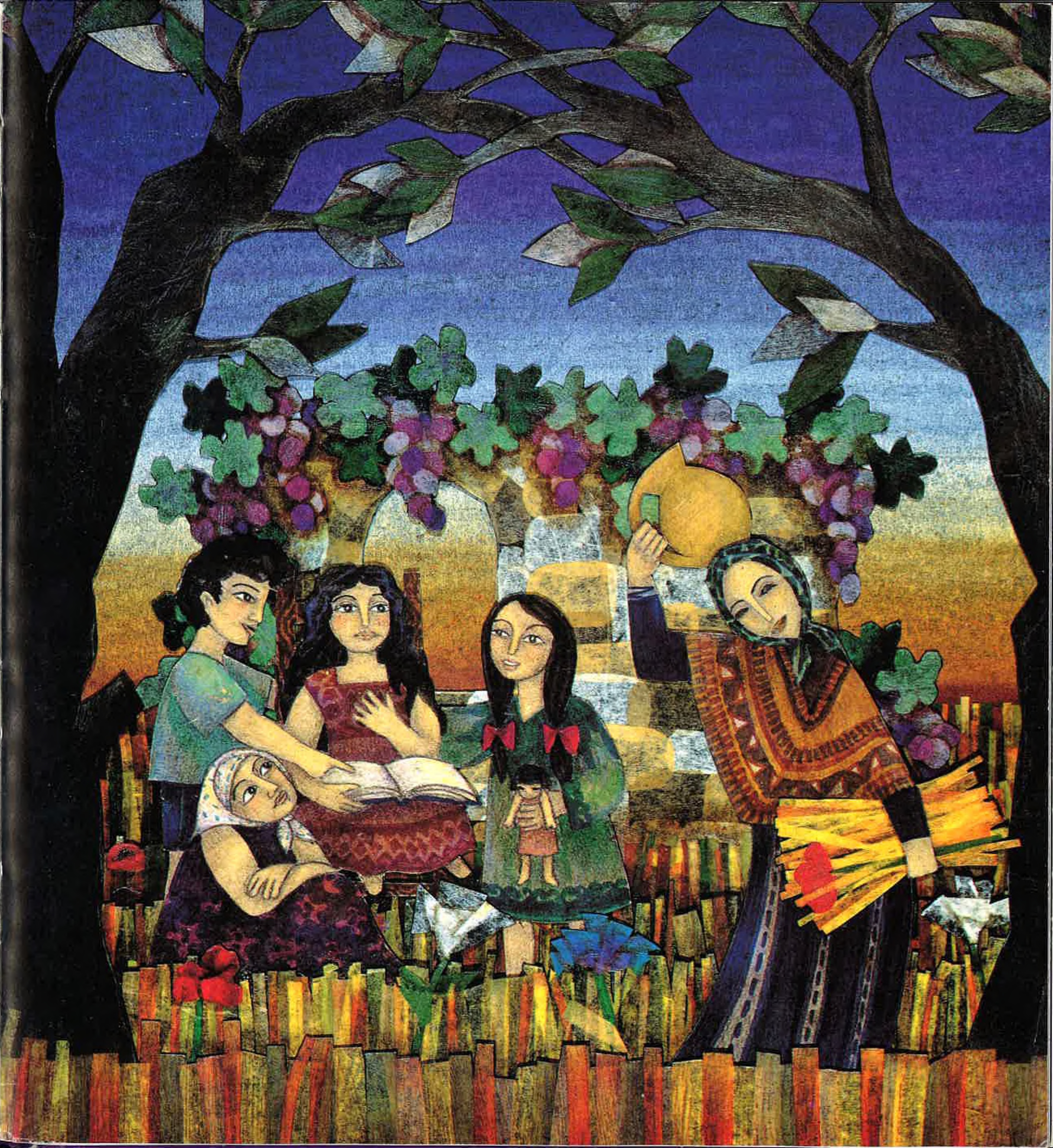


زين العابدين الحسيني
ولد في غزة عام ١٩٢٨ . نزح إلى القاهرة حيث تابع دراسته واشتغل بعدها بالصحافة . من ضمن اعماله رواية ومجموعات قصصية وعدة كتب للأطفال، يعيش الى اليوم في القاهرة .

حارسة النبع

كان يعيشُ في قرية صغيرة تُنبتُ أرضُها زهرَ الحنّون وخبزَ الغُرابِ والزنبقَ، فلاحٌ وزوجُهُ عيشةَ هناءٍ وحبٍ ورضى .
وكان للزوجين كوخٌ صغيرٌ ذو حديقةٍ صغيرة، فيها عددٌ من أشجار الزيتون، وكانت تعرّشُ على الكوخ داليةٌ كبيرةٌ بجوارها شجرةُ ياسمين يفوح عبيرُ زهرِها في أمسِيَات الربيع والصيف فيَمْلأ جوّ الكوخ والحديقة الصغيرة برائحة عَطِرة .
وكان أهلُ القريةِ يحبّون الزوجين لأنّهما كانا يُسرعان إلى معاونةِ كلِّ مَنْ يَقصِدُهما بروحٍ مُفْعَمةٍ بالإخلاص والصِّدْق . كما كان من عادتِهما أن يُشاركا الآخرينَ في فلاحَةِ أرضِهِمْ إذا هما فرغا من فَلْحِ قطعةِ أرْضِهما الصغيرةِ . لكنْ كانَ يُحزِنُ الزوجينِ أنهما لم يُرْزَقا طَوَالَ السنواتِ الماضيةِ بطفلَ أو طفلة تُؤنسُ حياتَهما وتملأُ الدنيا عليهما بهجةً . وكان أهلُ القرية إذا ما شاهدوا الزوجين عائدَيْن إلى كوخِهما الصغيرِ يقولونَ : «ما أَسعدهُما لو رُزقا بطفل أو بطفلة ! ! »
واستُجيبَ دُعاءُ أهلِ القريةِ فَرُزقَ الزوجان بطفلة بالغةِ الحُسْن، تَشِعُّ من عينَيها خُضرةُ أوراق الزيتونِ وتكتسي وَجْنتَاهَا بحُمْرَةِ أزْهار الحنّون المنتشِرةِ وَسْطَ سنابلِ القمحِ الذهبية، أما شعرُها فكان ذا لون أسودَ يتماوجُ كلما هبّت عليه النَّسَماتُ كتموُّجاتِ وَجْهِ الغدير الصافي في القرية .
حارَ الوالدانِ في اختيار اسم يليقُ بابنتِها، لكنَّ نساءَ القريةِ اللواتي أَحْبَبْنَها حُبّاً عظيماً حين طالعْن وجهَها، قُلن :
كانَ قدُوم الطفلة قدومَ سَعْدٍ وخيرٍ لكلِّ أهل القرية، فقد صادَفَ يومَ ولادتِها أن زادَتْ غلّةُ الأرض بشكلٍ لم يَسبْق له مثيل .
ولذا اجمعَتْ نساءُ القريةِ أن يكونَ لها اسمٌ لم تحملْهُ من قبل أيةُ فتاة .
وبعدَ فترة من التفكير تَوصَّلْن إلى اختيار اسم جميل لها،

وذهبْنَ إلى والدَيْهَا وقُلْنَ لهما إنَّهنَّ اخترْنَ للطفلة اسمَ:
«سماء!!»
مضى العامُ الأولُ من عمر سماءَ. لاحظتِ الأُمُّ في قَلَق أن ساقَي ابنتها لا يَنْمُوَان نمواً طبيعياً، وإنما ظلَّتا نحيلتين مثلما كانتا يومَ ولادتها، فتألمتْ كثيراً حين أدركَتْ أنه لن يكونَ في مقدور سماءَ أن تَلْهُو وتركُض مع رفيقاتِها من بناتِ القريةِ. وحزن أهلُ القريةِ، وحاولوا أن يواسوا والديهَا بكلماتٍ مناسبة. غيرَ أن الأبَ الصابرَ كان يقول:
«إن اللهَ كان يعْرفُ مدى حاجَتِنَا إلى طفلةٍ، وقد استجابَ اللهُ لنا فأَرْسل لنا طفلة حلوة هي الأخرى بحاجةٍ إلى حبِّنا وحناننا.»
كَبُرَتْ سماءَ واصبحَ عُمرها ثماني سنواتٍ، فازدادتْ بهاء وجمالاً، وكانت إذا نظرَتْ بعينيها الخضراوين إلى الحقولِ تبدو وكأنَّها تزدادُ اخضراراً، ويمتلئُ الكونُ بزقزقات العصافير، كما كان قلبُ سماءَ يتفتَّحُ مثلَ تفتُّحِ براعم الزَّنبق الناميةِ على حافةِ الغدير، ويزدادُ تَوَرُّدُ وجهها حتى كأنَّ ورقتين من زهر الحَنُّون قد ذابتا في خدَّيها. لكنَّ ساقَيْها ظلَّتا عاجزتين عن حملها من مكانٍ إلى مكان. وكان أهلُ القريةِ يرسلونَ أولادَهُمْ وبناتِهم بعدَ الانتهاء من العمل في الحقول للتَّحدُّث إلى سماء، كي لا تحسَّ بالوَحْدَةِ والوَحْشة. وكان بعضُهُم يُحاولُ تعليمهَا قراءةَ الحروف والكلمات، أو يَحكي لها القصصَ المُسَلِّيَةَ.
وكان الأمرُ الوحيدُ الذي يُحزنُ سماء، انها لا تستطيع أن تعملَ كالآخرين، فقد كانَ جميعُ أهل القرية، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، فتية وفتيات، يعملونَ معاً في زراعة الحقول ويحصدونَ في مواسم الحصاد معاً، ويقيمونَ الحفلات والولائم في نهاية مَوْسم الحصاد. فيرقصُ الشبابُ الدبكَة وتُغني الفتياتُ أُغنيَاتٍ يُردّدنَ فيها أَسماءَ أبطال القرية الشُّجعان حُماةِ النبع الذي يَمُدُّ القريةَ بالماء، ويبعثُ الحياةَ في الحقول، ويشيعُ النَّضارةَ في وجوه أهل القرية.
ولكن، ماذا تستطيعُ سماء أن تعمل؟ أخذَتْ تفكِّر: «ماذا أعملُ؟ وكيف أعملُ؟ وأنا لا أَمْلكُ ساقين أسيرُ بهما؟» وأغرورقَتْ عيناها بالدُّموع، فحزنت الطيورُ وكفَّتْ عن تغريدها، وتهدَّجَ خريرُ ماءِ الغدير.
أَخَذَت سماءُ تتطلعُ إلى الحقولِ، وإلى أهلِ القريةِ وهم مُنْكَبُّون على العمل. وراحَتْ تَرْقُبُ النحلَ وهو يتنقلُ من زَهرة إلى زهرة ليمتصَّ الرحيقَ ويصنعَ العسلَ لملكته. وفجأةً سَمعَتْ صوتاً كخرير الماءِ يقولُ: «يا سماءَ!» تَطَلَّعَتْ سماءُ حولَها، فلم تَجِدْ أَمَامَها سوى الغدير ومدَّت بَصرَها فرأتِ الحقولَ وَمِنْ فوقِها طيورٌ بيضاءُ تحومُ من مكان إلى مكان، وكان النحلُ ما يزالُ يَنْتقِل من زَهْرة إلى زَهرة.
قالت سماءُ:
«من يُنَادِيني؟!»
قال صوتُ خرير الماء:
«يا سماء، لماذا لا تَجْلسينَ بجوارِ نَبْعي لحراستهِ بدلاً من الجلوسِ تحت شجرةِ الزيتون؟»
قالت سماء في دهشة:
«مَنْ يُنَادِيني؟»



لكـن صوت خرير المـاءِ صَمَتَ هذه المـرةَ ولم يَرُد. استعـادَتْ سماءُ ما قالـهُ الصـوتُ فقـالتْ في نفسِها: «أجل، إنَّ في مقدوري أَنْ أعملَ شيئاً.»

كان من عادة أهـل القـرية منذُ زمن بعيدٍ أن يتناوبوا حِراسـةَ النبـع على قمـةِ التَّـلِّ الصخْـري وذلـك لأنَّ اللصـوصَ الغـاصبـينَ حاولوا غير مرةٍ الاستيلاءَ عليه ليحـوّلوا مياهَهُ إلى حقولهم التي انتزعُوها من أصحابها منذُ زمن بعيد وطردُوهمْ منها.

وكان أَهلُ القرية قد علّقوا جَرَساً نُحاسياً كبيراً على فرع شجـرةٍ ضخمـةٍ من أشجـار الصَّنَـوْبـر، ويتـدلّى من الجرس حبلٌ مجدولٌ من أوراق الكتّان، فإذا حدَثَ أن هاجَمَ اللصوصُ النبعَ كان على الحارس ان يشدَّ حَبْلَ الجـرس بقـوةٍ فيسمعَ أهلُ القرية، وهُمْ في الحقول، صوتَ الجـرس فيهـرعونَ للدفاع عن النبع وحمايته من عصابةِ اللصوص.

قررتْ سماءُ أن تطلُبَ إلى أبيهـا أن يسألَ أهلَ القريةِ لعلّهم يُوافقونَ على أنْ تتولّى هي حراسةَ النبع ليوم أو بضعةِ أيام مثلَ بقية أهلِ القرية. وعندما فاتَحتْ أباهَا في ذلـك احتَضَنَهـا قائلاً: «لكنّكِ ما تزالينَ صغيرةً!»

فقالتْ والدموعُ تنحدرُ من عينيها الجميلتين: «إن من هُمْ أصغرُ مني يعملونَ في الحقول، وأنا لا استطيعُ أَنْ أعملَ في الحقول مثلهُم، فلماذا تختارونَ لحراسة النبع شخصاً يستطيعُ أن يكونَ عملهُ في الحقول أكثر جدوى؟!»

قالت الأم: ولكنَّك يا ابنتي...»

قالتْ سماءُ: «أعرفُ أنني عاجزةٌ عن السَّير... ولكن يا أُمي لو كنتُ غيرَ صالحةٍ لعملِ شيءٍ لما جاءَ اللهُ بي إلى هذه الدنيا؟!»

قال الأبُ وهو يحتضنُ ابنتَه: «صَدَقْتِ، صَدَقت، يا سماء.»

ما كانَ أشدَّ سرورَ سماء حين وافقَ أَهلُ القريةِ على أَنْ تَتَولّى حراسـةَ النبع يوماً واحداً كلَّ أُسبوعين، وعندما حانَ دَوْرُهَـا للحـراسة، استيقظَتْ مبكّرةً أكثرَ من أيِّ يوم، وراحَتْ تتطلعُ من نافذة الكوخ الصغير. كانت العصافيرُ والأشجارُ والأزهارُ ما تزالُ نائمةً، والشمسُ لم تصـحُ بعـدُ. وكـانت السماءُ ذات لونٍ مضيءٍ مُشعّ. وراحت سماء تتأملُ الأشياءَ والكائنات وهي تَصْحُو كلّما اقـتربَ موعـدُ طلوع الشَّمْس، وأصغَت بسرورٍ إلى زقـزقات الطيور الصغيرة، ومحاولاتِها أن تحاكي الطيورَ الكبيرةَ في التَّغْريدِ، وقالتْ: «هذا أولُ يومٍ أبتعدُ فيه عنكم يا أحبائي.»

استعـدَّتْ سماء للخروج، كذلك والدُها، وحَمَل الأبُ سماء في حبّ وحنان، وحملَتِ الأمُّ كُرْسِي سماء المجدولَ من البـوص وأغصانِ الزيتون وأوراق الكتّان. وتوجَّهَ الجميعُ صوبَ التلِّ الصخري حيثُ النبع.

حينَ وصلوا إلى النبع، قال الأبُ وهو يُجلِسُ سماء على كُرسيّها:

«إذا رأيت أحداً غريباً قادماً من أسفل التلِّ نحوَ أعلاه فَشُدِّي هذا الحَبْل كي يُدَقَّ الجرسُ فيسمعَ الجميعُ الدقّات.»

قالتْ سماء فرحةً:

«سأفعلُ يا أبي.»

ضَمَّتِ الأُمُ أبنتها وقَبَّلْتَهَا ثم قالت:
لقد وضعتُ لك في صُرَّةِ الأكل بعضَ الخبز والجُبْن وثلاثَ تُفَّاحات وبُرتقالة، وهذا إبريقُ الماءِ بجوارك.»
قالت سماء: «شكراً لك يا أمي.»
بقيتْ سماء وحدَها بعدَ أن تركَها والداها وذهبَا للعمل في الحقل. أخذتْ تنظر إلى القرية والحقول وكان المنظَرُ بديعاً. سمعَتْ صوتَ خرير الماءِ ورأته وهو يندفعُ بين الصخور مُحْدِثاً فُقَّاعاتٍ بيضاءَ متحدِّراً إلى أسفل التل.
قالت سماء حين أَصْغَت إلى صوت خرير المـاءِ: «إنَّ صوتَه يُشْبِهُ ذلك الصوتَ الذي كلّمني بجوارِ الغدير في ذلك اليوم.»
تطلَّعتْ سماء إلى مياه النبع المتدفقة إلى أسفل وقالت:
«أَلَسْتِ أنت صاحبةَ الصوت؟»
لكنَّ صوتَ خريرِ الماءِ لم يُجِبْ، وإنَّما راحَ يتدفقُ بقوَّة أكبرَ إلى أسفل.
مضى بعضُ الـوقت، وأصبحتِ الشمسُ في مُنْتَصَف السماءِ: إنها الظهيرةُ... حان مَوْعِدُ الغَدَاء. أكلتْ سماء تفاحـة، وأغمضت عينيهـا وصـوتُ خرير المـاءِ يَنْسَابُ في نُعومة إلى أُذُنَيْها كالموسيقى الحلوة فأَغفَت. غَرقتْ في حُلُم ممتع شاهَدَتْ فيه الطيور. رأت نَفْسَهَا طَيراً يسبحُ في الفَضاء ويحطُّ على كلِّ الأشجار.
ولكنها صَحَتْ من حُلْمِهَا على صوت خرير الماء يصيحُ:
«حَذَار، حذار يا سماء من النوم، وإلا فقدتُمُ النبعَ المُقَدَّس.»
فتحتْ سماء عينيهـا مَذْعُـورةً، وراحتْ تُحَدِّقُ في مياه النبـع، ثم نظرت إلى أسفـلِ التلِّ الصخري، فَرَأَتْ أُناساً عجيبي الخِلْقَة، يحاولونَ صعودَ التلِّ.
على الفور، عَرَفَتْ سماءُ أَنَّهم أفرادُ عِصابة اللُّصوص، فقـالت في نفسِها: «أتمنَّى أنْ لا يكونَ قد فات الوقتُ لإنـــذار أهـلِ القـرية.» مدَّتْ يَدَهَـا لتسحبَ حَبْـلَ الجَرَس. لكنَّها اكتشفتْ أَنَّ الحبلَ أصبحَ بعيداً عنها.
قالَتْ سَماء: يا إلهي... ماذا حدث؟!»
فسمعتْ صوتَ خريرِ الماءِ يقول: «عندما نِمْتِ يا سماء انزلق الكرسيُّ قليلاً إلى الأمام.»
صاحتْ سماء وهي ترى عِصَابةَ اللصوص وقد بدأوا في تسلُّق التلِّ:
«ماذا أفعل؟!»
لم يَرُدَّ صوتُ خرير الماء. مَدَّتْ يدها بأَقْصَى ما تستطيعُ من قوةٍ لتُمْسك الحبل، دونَ جَدْوَى. صاحت: «ماذا أفعلُ؟ إنَّهم يقتربون!!»
قالَ صوت خريرُ الماءِ: «قفي، سيري على قدميك.»
قالت سماء: «لا أستطيع...»
قالَ صوتُ خرير الماءِ في غضب: «سيري على قدميك قبلَ فَواتِ الأوان.»
إتكـأَتْ سماء بكفَّيْها على حافتي الكرسي، حاولت ان ترفـعَ جسمهـا إلى أعـلى. لامست قدمـاها الأرضَ. حاولت، حاولت أن تقفَ، لكنَّها هَوَتْ على الكرسي.
قال صوتُ خرير المـاء: «إنَّها الفـرصـة الأخيرة لانقاذِ قريتك يا سماء... لا وقت للتردد... لا وقت للفشل.»
اتكـأَت سماء بكَفَّيهـا من جديدٍ على حافة الكرسي، استمدتْ قوةً اكبرَ وهي تتذكر أَهْلَ القرية وحبَّهم لها.



رفعتْ جسمهـا إلى أعـلى. لامست قدمـاها الأرض. وقفت. لم تقـع هذه المـرة. اهتـزت ركبتـاهـا. اندفَعَ جَسَدُها إلى الأمام. كادَتْ أَن تسقط.
صاحَ خريرُ الماءِ بقوّة: «لا وقت للسُّقوطِ... لا وقتَ للسقوط.» تماسكتْ سماء. وقفت. انحنت بصعوبة. امسكت ركبتيها بكفيها. دَفَعَتْ بكلِّ ما تَمْلكُ من قوة رجلَهَا اليمنى خُطْوَةً قصيرةً للأمـام. ثم خطوةً ثانيةً بالرجلِ اليسرى. نظرت إلى عصابة اللصوص. إنَّهم يَقْتَربونَ، ولكن ما يزالُ لديها وقتٌ: «اسرعي. اسرعي يا سَماء. تماسكي يا قدمي اليمنى. تماسكي يا قدمي اليسرى. تشجعّي يا يدي.» مشت سماء خطوتين إلى الأمـام. الآن عليها أن تشدَّ قامتَها، أَن تمدَّ يَدها إلى الحبـل، أن تمسكـه بقـوةٍ: «أجلْ... هكذا تعلَّقي بالحَبْلَ يا سماء. تأرجحي به إلى الأمام. إلى الوراء... إلى الأمام... إلى الوراء. هكذا يَسْمَعُ الجميعُ، أهلُ قريتك، وأهلُ كلِّ القرى صوتَ الجرس.»
سمعَ القَرَويّون وهمْ في الحقول صوتَ الجرس وهو يدقُّ مدوّياً. هرعـوا جميعـاً حامـلينَ فؤوسَهمْ، وَعِصِيَّهُمْ وبنادقَهم، واتجهوا صوبَ تلِّ النبع.
بعدَ لحظات كانوا هناك.
لم تكنْ عصـابةُ اللصوص قد وصلت بعد إلى النبع. تصدَّى أهلُ القرية بشجاعةَ فائقة لأفراد العصابة. قتلوا كثيرين وفرَّ من بقيَ منهم حيّاً.
صعـد أهلُ القريةِ إلى التلِّ الصخري، حيثُ النبع، بحثوا عن سماء لكنهم لم يجدوها.
«سماء! سماء! أين أنتِ يا سماء؟!»
رأوا كرسي سماء بعيداً عن الحَبْل، شاهدوا آثارَ قدميها متجهة من الكرسي نحوَ الجرس، هتفتْ أمُّ سماء: «لقد مشت... مشت سماء.»
وردَّد الصدى: «مشت سماء.»
وعلا صوتُ أهلِ القرية: لقد مشت... مشت سماء.»
بحثَ الجميعُ عن سماء، دونَ جَدوى. وبعد ساعات من البحث المُضْني، جلسَ الجميعُ في صَمت وحُـزْن حولَ النبع، يُصْغُونَ إلى صوتِ خرير الماء.
قال واحد:
«لا نعرفُ أين ذهبت سماء، لكن من المُؤكَّد أنَّها ستعود.»
قالَ طفلٌ صغير:
- لقد طارَت مع الطيور البيضاء التي تأتينا كلَّ صيف. وستعودُ الينا مع الطيور في الشتاء.»
قالت أمُّ سماء: «لقـد تَعِبَتْ كثـيراً من الجلوس على الكرسي، ثم مَشت، لكنني واثقةٌ بأن إبنتي سَتَعُود.»
قررَ أهـلُ القـرية إعـدادَ شيءٍ يُذكِّـرهُم دائـماً بسماء، فأحضروا قطعـاً من القـماش الحـريري الملون، قال احدُهم: «اللَّونُ الأحمرُ لِخَدَّيْ سماء.»
قالتِ امرأة: «واللون الأخضرُ لعينيْ سماء.»
وقـالـت الأم: «واللون الأبيضُ لقلبِ سماء النـاصـعِ الطاهر كزنابق الغدير.»
وقالت طفلة: «اللونُ الأسودُ لشعر سماء المضيء.»
وخـاطت كل أسرة رايةً جميلة من الألـوان الأربعـة، وشَـدَّتْ طَرفيْ الـراية بخيوطٍ متينة إلى عصا من شجر الـزيتـون. ثم رَفعتْ كل أسرة فوقَ بيتهـا الرايَة ذاتَ

الألــوانِ الأربعــة. وهكــذا أصبحت ألــوانُ سماء: الأخضر، والأحمر، والأبيض، والأسود، هي ألوانُ رايةِ أهلُ القرية. وكان أهلُ القريةِ واثقين أنَّ سماءَ ستعود لتقرعَ الجرس إذا حاولَ اللصوصُ سرقة مياه النبع.





توفيق فياض

ولد في الناصرة عام ١٩٣٩ ـ اعتقل عدة مرات من طرف السلطات الاسرائيلية وقضى أربعة أعوام من عمره في السجن قبل ان يبعد الى مصر عام ١٩٧٣. نشر عدة روايات ومجموعات قصصية ومسرحيات. يعيش اليوم في تونس.

حيفا والنورس

حَيْفَا بنتٌ صغيرةٌ سمراءُ، تعيشُ مع وَالدَيْها في بيتٍ من التّنك علىَ شاطىءِ البحرِ في بيروت. وحَيْفَا لا تُحبُّ بيْتَها كثيراً، لأنَّهُ يصيرُ حارّاً جدّاً عندما تَطْلَعُ الشَّمْسُ في الصَّيْف. وفي الشتاءِ، يَسيلُ الماءُ من شقوقِ السَّقْفِ، وتكادُ تَقْتَلعُهُ الرياحُ البَاردةُ.

لكنَّ حَيْفَا كانَتْ دائماً سعيدةً، لأنَّها تُحبُّ البَحْرَ كثيراً، وتُحبُّ تلْكَ الطُّيورَ الجميلَةَ البيضاءَ، التي تُرَفْرِفُ في الفَضاءِ دائماً، وتَحُومُ فَوْقَ قاربِ جَدِّها العجوزِ حينَ يَذْهَبُ في الْبَحْرِ بعيداً، وتَدُلُّهُ على الشَّاطِىءِ. وحَيْفَا تُحبُّ جدَّهَا كثيراً، لأنَّهُ يقولُ لِكُلِّ الأطفالِ دائماً: «حيفا جميلةٌ».

ويأخُذُها في القاربِ مَعَهُ، ويجري فوقَ المَوْجِ.

ذاتَ يوم رَأتْهُ يَحْمِلُ الشِّباكَ ويَتّجهُ نحْوَ القاربِ. سَبَقَتْهُ وَجلَسَتْ في القاربِ مثْلَ عَادَتِها، لكنّهُ أخَذَها بَيْنَ ذراعيهِ هذهِ المَرَّةَ وأَنْزَلَها، ثُمَّ قال: «اليومَ لا تَذْهَبينَ معي يا حَيْفَا».

قالَتْ حَيْفَا: «لماذا يا جَدِّي؟».

«لأنّي سأذهبُ بعيداً جدّاً هذا اليومَ» قالَ الجَدُّ.

وعندما صَعَدَ إلى القاربِ قالَ: «هناكَ حيفا ثانيةٌ خَلْفَ البَحْرِ، جميلةٌ مثْلُكِ، وتَنْتَظرُني دائماً. حينَ أعودُ سوفَ أُحدِّثُكِ عنها كثيراً». ثُمّ دَفَعَ القاربَ بيَدَيْهِ القَويَّتينِ إلى الماءِ، وراحَ يَبْتَعِدُ شيئاً فشيئاً، بينما وَقَفَتْ حَيْفَا على الشاطىءِ حزينةً.

عندما اخْتفى القاربُ خَلْفَ الأمواجِ، جَلَسَتْ حَيْفَا على الرَّمْلِ وَراحَتْ تبكي.

سَمعَ نَوْرَسٌ أبيضُ كانَ يُرَفْرِفُ فوقَ المَوْجِ بكاءَ حَيفا مِنْ بعيدٍ. أسْرَعَ الطَّيْرُ إليها وراحَ يَحُومُ حَوْلَها، ويُصَفِّقُ بجَناحَيْهِ.

«لماذا أنْتِ حَزينَةٌ هكذا يا حَيْفَا؟» قَالَ الطَّيْرُ وارتَفَعَ ثانيةً.

رَفَعَتْ حَيْفَا رأْسَها وَنَظَرتْ إلى النَّوْرَسِ وهي تَمْسَحُ دَمْعَها. وحينَ اقْتَربَ منها مَرَّةً أُخْرَى قالتْ: «لأنَّ جَدِّي

يُحِبُّ بنْتاً غيري أسْمُهَا حَيْفَا، وقَدْ تركني وذَهَبَ إليها».
ضَحِكَ النَّوْرَسُ كثيراً، وصَفَّقَ بجَناحَيْهِ فوقَ رأسِها.
غَضِبَتْ حَيْفَا وقالتْ: «لماذا تَسْخَرُ مني أيُّها النَّوْرَسُ؟».
«لأنَّ حَيْفَا الأُخْرَى لَيْسَتْ بنْتاً يا حَيْفَا، إنَّها مدينةٌ هناك، خَلْفَ البحر، جميلةٌ مثْلُك، وأنا أُحبُّها أيْضاً».
وَقفَتْ حَيْفَا غاضبَةً وقالتْ: «أنَّكَ تكْذِبُ أيُّها النَّوْرَسُ، إنَّها بنْتٌ صغيرةٌ ويُحِبُّها جدِّي أكْثَرَ مِنّي».
قالَ النَّوْرَسُ: «أنا لا أكذبُ يا حَيْفَا... حَيْفَا التي يُحِبُّها جَدُّكِ هي المدينةُ التي وُلِدَ فيها وترَعْرَعَ عندما كانَ طفْلاً صَغيراً مثلكِ، ولِذَلِكَ سَمَّاكِ على اسْمِها، لأنَّهُ يُحِبُّكِ كثيراً».
صَفَّقَ النَّوْرَسُ بجناحيهِ عدَّةَ مرَّاتٍ فوقَ رأسِ حَيْفَا، وارتَفَعَ في الفضاء.
مَدَّتْ حَيْفَا ذِراعَيْها وقالتْ: «لاَ تَتْرُكْني أَيُّها النَّوْرَسُ، أُريدُ أنْ أَسْأَلَكَ سُؤالاً آخرَ».
«أنا ذاهبٌ كَيْ أرى حَيْفَا مِنْ فوق البَحْرِ مَعَ جدِّكِ، وعندما أعودُ سوفَ أُحَدِّثُكِ عنها كثيراً»، قالَ الطَّيْرُ وابْتَعَدَ.
ابتَسَمَتْ حَيْفَا، وراحَتْ تُلَوِّحُ للنَّورس بيدَيْها الصَّغيرتَيْنِ. وعندما اختفى خَلْفَ الموج، جلستْ حَيْفَا على الرَّمْلِ، وراحتْ تَنْتَظِرُ جَدَّها حتى يعودَ.
وحينَ مالتِ الشَّمْسُ إلى المغيب، وتَعَلَّقَتْ فوقَ البحر مثْلَ بُرْتُقالةٍ، كانتْ حيفا لا تزالُ تَجْلِسُ على الشاطىءِ مُنْتَظِرةً جَدَّها، وتَحْلُمُ بحَيْفَا الثَّانيةِ.



ليانا بدر
ولدت في القدس عام ١٩٥٢ ونزحت عام ١٩٦٧ إلى عمان ثم بعدها إلى بيروت ثم دمشق. تعيش منذ ١٩٨٧ في تونس، لها عدة روايات ومجموعات قصصية وكتب للأطفال.

طيارة يونس

في القُدْس، يعيشُ ولدٌ اسمُه «رامي»، عمرُه ثماني سنواتٍ. وهو مثلُ كلِّ الأولادِ يحبُّ اللعبَ أكثر من المدرسة. وكان «رامي» يفرحُ كثيراً عندما يلعبُ مع أولادِ الحيِّ بالكُرَيَّات الزجاجيةِ المُلَوَّنةِ، إلى أنْ عرفَ طائراتِ الورق حين تعرَّفَ على «يونُس».

تعرَّفَ «رامي» في المدرسةِ على ولدٍ أكبرَ منه اسمُه «يُونُس». ولمَّا كان «يونُس» يسكنُ في حيٍّ قريب، فقد كانا يلعبان معاً بعدَ انتهاءِ اليوم الدراسي. كان «يونُس» مشهوراً بصنعِ طائراتِ الورقِ. وعندما كان الأطفالُ يرَوْنَ في سماءِ المدينةِ تفاحةً ورقيَّةً حمراءَ، أو طيراً أخضرَ، أو سمكةً عائمةً في الفضاءِ الأزرقِ، كانوا يقولونَ فوراً: «هذه طياراتُ «يونُس»».

لا أحدَ يستطيعُ أن يعلِّمَ «رامي» كيفَ يصنعُ طائراتٍ مثلَ هذه غيرُ «يونُسَ». بدأ «رامي» يصنعُ طائراتِه الخاصةَ مع صديقِه. ففي عصرِ كل يومٍ، كانا يصنعان جزءا من الطائرةِ. لكنَّ «رامي» كان محتاراً إن كان سيجعلُها على شكلِ نجمةٍ، أم أفعَى ذاتِ ذيلٍ طويلٍ.

وفي عصرِ أحدِ الأيامِ، سمعَ «رامي» ضجَّةً غيرَ مُعْتادةٍ. البناتُ اللواتي يلعَبْنَ تركْنَ القفزَ بالحبل، وحدَّقْنَ إلى البعيدِ. الأولادُ الذين كانوا يلعبونَ بالمَقاليع، وتركيب ألعاب السياراتِ من عُلَب الحليب الفارغةِ، وأولئكَ المُنْشَغلون بالتهديفِ علَى أكوامَ الحجارةِ، تركوا كلَّ شيءٍ، وحدَّقوا إلى البعيد أيضاً. كانوا يشيرون جميعاً إلى الغَيْمةِ السوداءِ البعيدةِ التي تُحَلِّقُ فوقَ الحيِّ المجاورِ.

قالت «رنا» أختُ «رامي»: «قد تكونُ هذه الطيورَ المهاجرةَ رأيناها في العام الماضي».

ـ «لا، يا ذكيَّةُ!»



وقال «سَلْمانُ» الشقيُّ الذي كان ماهراً في صيدِ العصافيرِ بالنُّقَيْفَـة: «الـطيورُ تأتي في الخـريفِ، ونحن الآنَ في الربيع. الطيورُ ليست مثلَ هذه السحابةِ، فهي تُصدرُ صوتَ فَرقَعَةٍ وصياحٍ. اسمعوا!».
اقـتربَ الصوتُ، فحبسوا أنفاسَهم. وسمعوا الصوتَ يعلو ويعلو. وفجـأةً، شاهـدوا السياراتِ العسكريةَ. وسمعوا أصواتَ الرصاصِ المطاطِّ وقنابلِ الغازِ؛ فعرفوا أن الجنودَ يحاصِرون البيوتَ والأحياءَ المجاورةَ مثلما فعلوا بالمدارس قبلَ يومَيْنِ. وفي السماءِ؛ كانت طائرةٌ مِرْوَحِيَّةٌ مثلَ طاحونةٍ ناريَّة. أما الجنودُ على الأرض، فقد كانوا يرتـدون خُوَذاً حديديةً، وهـوائيّاتُ أجهزةِ اللاسلكي ترتفعُ خلفَ ظهورهم، وكانت النظاراتُ الكبيرةُ الغامقةُ - المضادَّةُ للغـازاتِ السـامَّـة - تجعلُهم يظهرون مثلَ كائناتِ ما قبلَ التاريخ. ثم سُمِعَت أصواتُ سياراتِ الاسعافِ، ومُكبّراتُ صوتٍ تأمرُ بمنع التجوُّل.
انتشرت الأخبـارُ بعدَ قليلٍ، فعرفوا أن الجنودَ ضربوا العِياراتِ النـاريةَ على الأولادِ في حي «يونُس». ولهـذا السببِ، أراد «رامي» أن يطمئنَّ على صاحبه. ذهب إلى أمِّه، وقال لها: «أنا ذاهبٌ يا أمي».
فقالت له: «لا تَبْتَعِدْ عن الحيِّ. أنت ترَى ما يفعلُ الجنودُ».
تسلَّل «رامي» بين البيوتِ والشوارع الضيِّقة، وتسلَّق الأسوارَ الخلفيةَ إلى أن وصلَ بيتَ صاحبه.
لكنـه لم يعـرفْ ماذا يعمـلُ، عنـدمـا وَجَدَ أمَّ صديقِه «يونُس» - ترتدي الثوبَ الفلاحيَّ - تبكي، وهي جالسةٌ بين أنـاسٍ كثـيرين. اقترب منها وسألها بخَجَلٍ «أين «يونسُ»؟. انْهَمَرَت دموعٌ كثيرةٌ من عينَيْها، ولم تُجِبْهُ. رفعت يدَها، وأشارت بسَبّابَتِها إلى السماءِ، فلم يفهمْ ما تريدُ أن تقولَ.
سأل «رامي» أبا «يونُسَ» الذي يرتدي الحَطَّةَ والعِقالَ، والذي يجلسُ بين العديدِ من الأولادِ والشبابِ: «أين «يونسُ» ؟».
قال الأبُ، وهو حزينٌ: «يونسُ»! في الجنَّةِ».
- «ماذا؟ وأين هي الجنةُ؟».
ولم يَكُنْ لدَى أحدٍ مُتَّسَعٌ من الوقتِ كي يُجيبَه، فازْدادَت حيرةُ «رامي»، فخرج إلى الشارع، وسألَ أولادَ الحيِّ: «أين «يونُسُ»؟» فأشـاروا بأصـابعِهم إلى فوقَ، وقالوا الشيءَ نفسَه.
نظر «رامي» إلى السماءِ واستغرب. ليس من الممكن ان يذهبَ «يونُسُ» ويُطَيِّرَ الـطائـرةَ ويتركَـه. كان «رامي» متأكداً أن «يونُسَ» سينتظرُهُ، ليطيِّرا الطائرة الجميلةَ التي أوشكت على الانتهـاءِ، كثـيراً ما كان يتخيَّل أن هذه الطائرةَ سوف تصبحُ بِساطَ ريحٍ يجوبان فوقَه - مع أولادِ الحيِّ - كلَّ الدنيا.
رجع «رامي» إلى بيتِه، وهو حزينٌ. ذهب إلى جَدِّه الذي كان يزرعُ الطماطمَ في الحديقة، وسأله: «ما معنَى الجنةَ يا جدي؟ قالوا لي إن صديقي أصبح في الجنةِ؟».
رفـع جَدُّه ظهـرَه المُنْحَني، وقال: «كان هذا يحدثُ في زمانِنا، عندما كُنّا نقاتل لنحّرر البلادَ. بلادُنا لنا، ولهذا نحاربُ من أجلِها. مبروكٌ. أصبحْتُم مثلَنا».
وهنـا فكـر «رامي» أن يستعينَ بجَدَّته، ليفهمَ ما هي القصـةُ. كانت الجـدةُ تَطْوي سَجّـادَةَ الصلاةِ وبيدِها

المْسَبَحَةُ، عندما سألها «رامي»: «جدتي، جدتي، لماذا يذهبُ الصغارُ إلى الجنةِ؟».
قالت الجدةُ: «عندما يموتُ الأولادُ وهم صغارٌ، يصيرون مثلَ الملائكةِ ولهم أجنحةٌ يصعَدون بها إلى الجنةِ».
- «لكن «يونُسَ» راح ولم يُخْبرني، مع أننا اتَّفَقْنا أن نُطيِّرَ طائرةَ الورقِ التي نصنعُها معاً كلَّ يومٍ. كيف يذهبُ «يونس» ويتركُني؟».
- «ليس الأمرُ بيدِه يا صغيري. لقد ذهبَ لأنه يحبُّ بلادَه. هل تذكرُ بيتَ جيرانِنا الذي حضر الجنودُ ونَسفَوه؟ وهل تتذكرُ ابنَ عمِّك «سمير» الذي سجنوا أباه؟ وهل تتذكرُ «دلال» - بنتَ «أمِّ سليم» - التي كُسِرَت يدُها، وانتثر الرصاصُ المُتفَجِّرُ في عينَيْها بعد أن شاركت في مظاهرةِ «يوم الأرض»؟».
وشرحت الجدةُ له واقعَ الأمرِ، وظلَّت تقولُ: «هل تذكرُ؟... وهل تذكرُ؟...»، وهي تخبرُه عن العذابِ الذي يحدثُ كلَّ يومٍ بسببِ جنودِ الاحتلالِ.
في الليل، كان القمرُ أخرَسَ حزيناً، ولم ينَمْ «رامي» لأنه مشتاقٌ لصاحبِه الذي صَعدَ إلى السماءِ. كان يفكرُ في طريقةٍ يقولُ له بها إنه عرفَ تماماً كيف أنه لم يذهبْ ويتركْه ليطيِّرَ - وحدَه - الطائرةَ التي اوشكت على الاكتمالِ، والتي كان يمكن أن تصيرَ بساطَ ريحٍ.
وأحسَّ «رامي» بأنه يريدُ أن يبعثَ رسالةً إلى «يونسَ» يقولُ له فيها إنه فهم تماماً معنى الجنةِ التي في السماءِ، والتي يصعَدُ إليها أولادٌ شجعانٌ دونَ أن يجدوا الوقتَ ليُودِّعوا أصحابَهم وأهلَهم.

في صباحِ اليومِ التالي، كانت غيمةٌ سوداءُ تقتربُ من الحيِّ الذي يسكنُ فيه «رامي». الطائراتُ تقتربُ مثلَ الدبابيرِ الهائجةِ. والجنودُ يتحرَّكون مثلَ أسرابِ الجرادِ، حاملينَ البنادقَ، وقنابلَ الغازِ، والهراواتِ المطاطيةَ، والكثيرَ من الرصاصاتِ الجاهزةِ للاطلاقِ.

في الوقتِ ذاتِه، كان «رامي» و«رنا»، و«سلمان»، وكلُّ أولادِ الحيِّ مُسْتَعِدِّين جيِّداً، بأيديهم المقاليعُ، والنقيفاتُ، وحبّاتُ البصلِ التي يفركون بها أنوفَهم ضدَّ قنابلِ الغازِ، والكرياتُ الزجاجيةُ ترقدُ في سِلالِ قشٍّ يستخدمونها في الرمي بالنقيفاتِ. أما البناتُ والأولادُ الصغارُ، فكانوا منشغلين بتجميعِ الحجارةِ في القُفَفِ قربَ الأولادِ الكبارِ. وكانت جدةُ «رامي» والنساءُ العجائزُ يُفَتِّتْنَ قِطَعَ الحجارةِ الكبيرةِ التي ينتزِعُها الشيوخُ من الجدرانِ إلى قطعٍ صغيرةٍ ليقدرَ الأطفالُ على حملِها ورَمْيِها، وكانت «رنا» وصديقاتُها يُحْضِرْنَ حباتِ الرّمانِ اليابسِ لقذفِه على الجنودِ الذين يطلقون النارَ على الأطفالِ الذين يحبُّون وطنَهم. وعلى رأسِ تلٍّ صغيرٍ، وقف «رامي و«سلمان» مُسْتَعِدَّيْن ليبعثا رسالةً إلى «يونس» من قلبِ الاشتباكِ. وفوقَ سطحِ بيتِ الجيرانِ، وقف «سمير» وبيدِه رسالتُه إلى ابيه الموجودِ في السجنِ.
اقترب حشدُ الجنودِ فَمَدَّت الأمهاتُ رؤوسَهن من الشرُفاتِ، وهن يُزَغْرِدْنَ لأولادِهن، ويُوَجِّهْنَ تحركاتِهم كي يحاولوا تجنُّبَ الرصاصِ. ومع أولِ زغرودةٍ رَنَّتْ، طَيَّرَ الأولادُ الرسائلَ المكتوبةَ على طائراتِ الورقِ إلى الأصدقاءِ والآباءِ.

ارتفت طائـرةُ «رامي» في الهـواءِ وعليهـا عَلَمُ فلسطينَ بالألـوانِ الأربعـةِ مكتوباً عليها: «عزيزَنا «يونسَ» لن ننساك!». كان الأبيضُ في العلمِ مثلَ الزنابقِ البرِّيةِ في بلادِنـا، والأخضرُ مثـلَ سهـولِ الـربيعِ في أرضنا، والأحمرُ مثلَ زهورِ الحَنُّونِ التي تُنادينا إليها، والأسودُ كي يُذَكِّرَنا بعذابِ أولادِنا من أجلِ التحرير.



فراس يصنع بحراً

كَانَ «فِـرَاسٌ» يَعيشُ مَعَ عائلَته بَعيداً عَن الْبَحْرِ، لَقَدْ عَرَفَت الْعَائلَةُ كُلُّهَا الْبَحْرَ قَبْلَ أَنْ تُهَاجِرَ مِنْ وَطَنِهَا، أَمَّا «فِرَاسٌ» فَلَمْ يَرَهُ أَبداً.

كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ أَمَامَهُ عَن الْبَحْرِ، وكَأَنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ حَبيبٍ غَائبٍ: كَانُـوا يَصِفُونَ لَوْنَهُ الأَزْرَقَ الَّذي يَلْتَقي بِلَوْنِ السَّمَاءِ، وَيَحْكُونَ عَنْ شَاطئه الأَبْيضِ النَّاعمِ الَّذي تَنْطَبِعُ فَوْقَهُ آثارُ الأَقْدامِ، حَتَّى تَأْتيَ الأَمْوَاجُ فَتَمْحُوهَا لُتعيدَ الرِّمَالَ صَفْحَةً بَيْضَاءَ.

تَمَنَّى «فِرَاسٌ» أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ الصَّوْتَ الَّذي تَهْمِسُ بِه الأَمْوَاجُ في النَّهَارِ واللَّيْلِ، وَأَنْ يَرَى ضَوْءَ الْقَمرِ يَنْعَكسُ عَلَى الأَمْوَاجِ، وَأَنْ يَحْلُمَ مَعَ تِلْكَ السُّفُنِ الْكَبيرَةِ الَّتي تَرْحَلُ إلى بلادٍ بَعيدَةٍ غَامِضَةٍ وَمَمْلُوءةٍ بالأَسْرَارِ.

قَالَ «فِـرَاسٌ»: أُريدُ أَنْ يَكُـونَ لِي بَحْـرٌ كَالْبَحْرِ الَّذي يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ!

جَاءَ «فِرَاسٌ» بماءٍ كَثيرٍ، وَوَضَعَهُ في وعَاءٍ كَبيرٍ. مَرَّةً وَمَرَّةً. وَعَشَرَاتِ المَرَّاتِ.

لَكِنَّ الْمَاءَ الْكَثيرَ لَمْ يَكُنْ في نَظَرِ «فِراس» بَحْراً!

جَاءَ «فِـرَاسٌ» بالْمِلْحِ مِنَ الْمَطْبَخِ، وَأَضَافَه إلى الْمَاءِ، وَحَرَّكَ الْمَاءَ بيَدَيْه حَتى ذَابَ الْمِلْحُ.

لَكنَّ الْملحَ مَعَ الْمَاءِ، لَمْ يَصْنَعَا «لفِرَاسٍ» بَحْراً!

- قَدْ يَنْقُصُ هَذا الْبَحْرَ لَوْنٌ أَزرقُ!»

جَاءَ «فِـرَاسٌ» بزُجَـاجَةٍ مِنَ الحِبْرِ الأَزْرَقِ، وَصَبَّهَا فَوْقَ الْمَاءِ، ثُمَّ حَرَّكَهُ بِيَدَيْهِ لِيَصْنَعَ أَمْوَاجاً.

وَعِنْدَمَا نَظَرَ «فِرَاسٌ» إِلَى الْمَاءِ الأَزرقِ، قَالَ: «لَيْسَ هَذَا بَحْراً».

فَرَشَ «فِـرَاسٌ» رَمْلاً نَاعِماً حَوْلَ وِعَاءِ الْمَاءِ. وَجَاءَ أَيْضاً بأَصْدَافٍ وَقَوَاقِعَ، وَوَضَعَهَا حَوْلَ الْوِعَاءِ وَلَكِنَّ الرَّمْلَ، وَالأَصْدَافَ، وَالقَوَاقِعَ، لَمْ تَصْنَعْ مِنْ وِعَاءِ الْمَاءَ بَحْراً.

حَتَّى السَّمَكَةَ الَّتي وَضَعَهَا «فِرَاسٌ» في الْمَاءِ، لَمْ تُصَدِّقْ أَنَّ ذَلكَ الْوِعَاءَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَحْراً!

عَرَفَ «فِـرَاسٌ» أَنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَصْنَعَ مِنْ كُلِّ هَذه الأَشْيَاءِ بَحْراً، وَأَنَّ الْبَحْرَ الْكَبيرَ الْحَقيقيَّ سَيَظَلُّ يُنَاديه، وَأَنَّهُ سَيَعُودُ إِلَيْهِ بِرَغْمِ كُلِّ الصُّعُوبَاتِ.


وفجأة هبت
ريشه في الهواء



FIRAS FABRIQUE UNE MER

Firas et sa famille habitaient loin de la mer. La famille tout entière connaissait la mer, avant d'être obligée de partir loin de son pays. Mais Firas, lui, ne l'avait jamais vue.
On en parlait devant lui comme s'il s'agissait d'un être cher et absent. On décrivait son bleu qui rejoignait le bleu du ciel. On racontait ses plages blanches et lisses où les pas s'impriment jusqu'à ce que les vagues viennent tout effacer et transforment le sable en une page blanche.
Firas désirait entendre l'incessant murmure du flot ; il désirait voir le reflet de la lune sur les vagues ; il voulait rêver avec ces grands bateaux qui voyagent vers des contrées lointaines et remplies de mystères.
Et Firas dit : « Je veux avoir une mer, toute pareille à celle dont on me parle ! »
Il apporta donc de l'eau, la versa dans une grande cuve. Il recommença. Une fois, puis une autre, des dizaines de fois. Mais toute cette eau ne faisait pas encore une mer !
Firas prit le sel à la cuisine et le répandit dans l'eau. Ensuite, il remua l'eau avec ses mains, pour faire fondre le sel. Mais du sel et de l'eau, cela ne faisait pas encore une mer !
« Ce qui manque à cette mer, c'est qu'elle soit bleue ! »
Firas alla chercher une bouteille d'encre bleue, la mélangea à l'eau. Il remua encore avec ses mains, pour faire naître des vagues. Puis, contemplant l'eau bleue, il s'exclama :
« Ceci n'est pas encore une mer ! »
Alors, il étala du sable fin autour de la cuve. Il y déposa des coquillages de toutes sortes. Mais le sable, les coquillages, cela ne transformait pas une cuve en mer !
Et même le poisson que Firas plongea dans l'eau n'arriva pas à croire que la cuve était une mer !

Firas sut alors qu'il ne pouvait fabriquer une mer avec toutes ces choses. Il sut encore que la vraie mer allait continuer à l'appeler et qu'aucun obstacle ne l'empêcherait de la rejoindre un jour.

ce cerf-volant presque terminé et qui pourrait bien, un jour, se transformer en tapis volant.
Et Rami décida d'envoyer une lettre à Younès. Il lui dirait qu'il comprenait très bien ce qu'était le paradis qui est au ciel, là où vont les enfants courageux qui n'ont pas eu le temps de dire adieu à leurs amis et à leurs parents.

Le lendemain matin, un nuage noir s'approchait du quartier de Rami. C'étaient des avions, semblables à un vent déchaîné. Et ce vent apportait avec lui des nuées de sauterelles : les soldats avec leurs fusils, des grenades, du gaz, des matraques en caoutchouc, et des balles, beaucoup de balles, prêtes à partir.
Mais Rami, Rana, Sulaïman, tous les enfants du quartier attendaient de pied ferme. Ils avaient des frondes, des lance-pierres... et ils avaient aussi des oignons : cela servirait à se frotter le nez pour se protéger des gaz. Dans des paniers d'osier, des billes de verre attendaient de servir de projectiles pour les frondes. Les filles et les tout-petits remplissaient de cailloux des corbeilles qu'ils plaçaient près des plus grands. Les vieillards enlevaient des murailles de grosses pierres que la grand-mère de Rami et les autres femmes de son âge cassaient en petits morceaux, pour que les enfants puissent les lancer. Rana et ses amies stockaient des écorces de grenade sèches : elles les jetteraient sur les soldats qui allaient tirer sur les enfants parce qu'ils aimaient leur pays.
Tout en haut d'une petite colline, Rami et Sulaïman se tenaient prêts à envoyer une lettre à Younès ; ils attendaient le moment où l'on serait au plus fort de l'affrontement. Sur la terrasse des voisins, Samir aussi était prêt : il tenait à la main une lettre pour son père emprisonné. Les soldats approchaient et les femmes se penchèrent aux fenêtres. Tout en lançant des youyous en l'honneur de leurs enfants, elles dirigeaient leurs mouvements pour les aider à éviter les balles.
Quand le premier youyou retentit, tous les enfants lâchèrent leur cerf-volant : c'est là qu'ils avaient écrit leur lettre. Le cerf-volant de Rami s'élança dans le ciel. Il portait les couleurs de la Palestine et on y lisait : « Cher Younès, je ne t'oublierai pas. » Le cerf-volant était blanc, comme le lys sauvage de notre pays. Il était vert, comme les prairies au printemps sur notre terre ; rouge comme les coquelicots qui nous appellent vers elle. Et il était noir, pour que nous nous souvenions à jamais des tourments de ses enfants pour la libérer.







Un peu plus tard, les nouvelles se répandirent. On sut que les soldats avaient tiré sur les enfants, dans le quartier où habitait Younès. Rami voulut donc s'enquérir de son ami et il alla dire à sa mère :
« Je sors, maman.
– Ne quitte pas le quartier, répondit-elle. Tu as vu ce que font les soldats... »
Rami se faufila entre les maisons, dans les ruelles étroites, il escalada les enceintes et arriva enfin à la maison de son ami, mais... mais là, il ne sut que faire ! La mère de Younès était entourée de gens, et elle pleurait. Il s'approcha quand même et, timidement, demanda :
« Où est Younès ? »
La pauvre femme sanglotait et ne put répondre. Elle leva la main et, de l'index, indiqua le ciel. Mais Rami ne comprit pas ce qu'elle voulait dire. Il s'adressa alors au père de Younès qui était assis auprès de plusieurs enfants et adolescents.
« Où est Younès ?
– Younès ? Younès est au paradis, répondit tristement le père.
– Quoi ? C'est où, le paradis ? »
Personne ne prit la peine de répondre et la perplexité de Rami augmenta. Il partit donc et interrogea les enfants du quartier :
« Où est Younès ? »
Et tous pointaient un doigt en l'air sans dire un mot.
Rami regarda vers le ciel et il s'étonna. Il n'était pas possible que son ami s'en aille faire planer son cerf-volant et qu'il l'abandonne. Rami était sûr, au contraire, que Younès allait l'attendre avant d'essayer le beau cerf-volant qui était presque fini. Il avait tant de fois rêvé qu'il se transformait en un tapis volant avec lequel lui et ses camarades feraient le tour du monde !
Rami rentra chez lui tout triste. Il alla trouver son grand-père, qui plantait des tomates dans le jardin, et lui demanda :
« Qu'est-ce que ça veut dire, le paradis ? On m'a dit que mon ami y était. »
Le grand-père se redressa.
« Oui. Cela se passait aussi de mon temps, quand nous voulions libérer le pays. Notre pays est à nous et nous nous battons pour lui. Je vous félicite ! Vous voilà devenus comme nous... »
Cela n'éclairait pas Rami et il eut l'idée de recourir à sa grand-mère pour qu'elle lui explique tout. Elle était en train de ranger son tapis de prière, un chapelet à la main.
« Grand-mère, pourquoi les enfants vont-ils au paradis ? demanda Rami.
– Les tout-petits, quand ils meurent trop tôt, deviennent des anges et il leur pousse des ailes qui les emmènent au paradis.
– Younès est parti sans m'avertir et pourtant, on devait faire voler le cerf-volant qu'on construit ensemble. Comment a-t-il pu partir et me laisser ?
– Mon enfant, il n'y est pour rien. S'il est parti, c'est parce qu'il aimait son pays. Est-ce que tu te rappelles la maison de nos voisins, que les soldats sont venus détruire ? Et tu te rappelles ton cousin Samir dont le père est en prison ? Et Dalal, la fille d'Oum Salim, celle qui a eu la main brisée et qui a perdu les yeux à cause d'une balle, pendant la manifestation pour le jour de la Terre ? »
Et la grand-mère expliqua tout à Rami. Elle disait : « Tu te rappelles ?... Tu te rappelles ? » et elle retraçait les tourments vécus jour après jour à cause des soldats qui occupaient le pays.
Cette nuit-là, même la lune semblait triste. Rami ne dormait pas : il ne pensait qu'à son ami, qui était monté au ciel. Il cherchait un moyen de lui dire qu'il avait tout compris. Il savait que Younès ne l'avait pas abandonné exprès ; il savait qu'il n'avait pas voulu le laisser seul avec

LAYANA BADR

Née en 1952 à Jérusalem qu'elle doit quitter en 1967 pour vivre à Amman, ensuite à Beyrouth et Damas. Depuis 1987, elle vit à Tunis. Romancière, nouvelliste, elle est aussi l'auteur de plusieurs livres pour enfants.

LES CERFS-VOLANTS

Rami vivait à Jérusalem. Il avait huit ans et, comme tous les enfants, il préférait le jeu à l'école ! Sa plus grande joie était de retrouver les enfants du quartier pour des parties de billes. Jusqu'à ce qu'il connaisse les cerfs-volants, en même temps que Younès.

Un jour, Rami rencontra à l'école un garçon plus âgé que lui : c'était Younès. Ils n'habitaient pas très loin l'un de l'autre et ils prirent l'habitude de jouer ensemble, après l'école. Younès était célèbre pour ses cerfs-volants, qu'il savait construire mieux que personne. Quand les enfants apercevaient dans le ciel de Jérusalem une pomme rouge, un oiseau vert, ou encore un poisson voguant dans l'immensité bleue, ils s'écriaient :

« Voilà un des cerfs-volants de Younès ! »

Personne d'autre que lui ne pouvait donc aider Rami à s'en fabriquer un. Et ils se mirent au travail. Tous les après-midi, ils en montaient un morceau. Mais Rami hésitait encore : lui donnerait-il la forme d'une étoile ou bien d'une vipère à la longue queue ?

Un après-midi, Rami entendit un fracas inhabituel. Les filles qui sautaient à la corde cessèrent de jouer et se mirent à regarder quelque chose. Les garçons qui s'amusaient avec des frondes, ceux qui faisaient des voitures de course avec des boîtes de lait vides, ceux qui jouaient à viser un tas de pierres, tous s'arrêtèrent et se mirent aussi à regarder quelque chose : un nuage noir qui venait du quartier voisin.

Rana, la sœur de Rami, s'écria :

« C'est peut-être les oiseaux migrateurs que nous avons vus l'année dernière !

– Mais non, espèce de sotte ! (C'était Sulaïman, un spécialiste de la chasse au lance-pierres.) Ces oiseaux-là viennent en automne et nous sommes au printemps ! Et puis, ils ne ressemblent pas à ce nuage d'où proviennent des explosions et des cris ! Ecoutez...»

Le bruit se rapprochait. Ils retinrent leur souffle et entendirent alors monter les cris. Ils aperçurent des voitures militaires. Des balles claquèrent, des grenades explosèrent. C'est alors qu'ils comprirent : les soldats encerclaient les quartiers voisins, comme ils l'avaient fait pour les écoles, deux jours auparavant. Dans le ciel, un avion tournait, avec des hélices qui le faisaient ressembler à un moulin à vent. Les rues étaient pleines de soldats au casque de fer et qui avaient l'air de créatures préhistoriques, avec leur dos hérissé d'antennes et les grands yeux obscurs de leur masque à gaz. Puis on entendit les sirènes des ambulances, et des haut-parleurs annoncèrent le couvre-feu.

« Tu mens, mouette ! C'est une petite fille et mon grand-père l'aime plus que moi !
– Je ne mens pas. La Haïfa que ton grand-père aime est la ville où il est né et où il a vécu quand il était petit comme toi. Il t'a donné son nom car il t'aime beaucoup. »
La mouette bat alors des ailes plusieurs fois au-dessus d'Haïfa, puis s'élance dans l'espace. Haïfa tend les bras et s'écrie :

« Ne me laisse pas, mouette ! Je veux te poser encore une question !
– Je m'en vais par la mer voir Haïfa avec ton grand-père. A mon retour, je t'en parlerai davantage », dit l'oiseau avant de s'éloigner.

Haïfa sourit et agite vers lui ses petits bras. Et quand la mouette disparaît derrière les flots, elle s'assoit sur le [illegible]t se met à attendre le retour de son grand-père.





TAWFIQ FAYYAD

Né en 1939 à Nazareth. Arrêté à plusieurs reprises par les autorités israéliennes. Il passera quatre ans de sa vie en prison avant d'être expulsé vers l'Egypte en 1973. Il a publié des romans, des recueils de nouvelles et des pièces de théâtre. Il vit aujourd'hui à Tunis.

HAÏFA ET LA MOUETTE

Haïfa est une petite fille aux cheveux noirs. Elle vit avec ses parents dans une baraque en zinc, à Beyrouth, près de la mer. Haïfa n'aime pas beaucoup sa maison car on y étouffe en été, quand le soleil brille. Et quand vient l'hiver, l'eau s'infiltre par toutes les fentes du toit que les vents froids menacent d'arracher.

Mais Haïfa est heureuse malgré tout, car elle aime beaucoup la mer et ces beaux oiseaux blancs qui animent le ciel de leur vol. Et quand son vieux grand-père part loin en mer, ce sont ces mêmes oiseaux qui planent autour de sa barque, pour lui indiquer la côte.

Haïfa aime beaucoup son grand-père, car il dit toujours à tous les enfants : « Haïfa est belle. » Et puis il la prend avec lui dans sa barque, qu'il fait courir sur les flots.

Ce jour-là, elle le voit se charger de son filet et se diriger vers sa barque. Elle l'y précède et s'y assoit, comme elle en a l'habitude. Mais, cette fois-ci, il la serre dans ses bras puis la fait descendre :

« Aujourd'hui, Haïfa, tu ne partiras pas avec moi.

– Pourquoi, grand-père ?

– Parce que, aujourd'hui, je vais loin. Là-bas, derrière la mer, il y a une autre Haïfa. Elle est belle comme toi, et elle m'attend. A mon retour, je t'en parlerai davantage. »

De ses bras puissants il pousse la barque dans l'eau, et s'éloigne peu à peu, pendant qu'Haïfa reste là, sur la berge, toute triste.

Lorsque la barque disparaît derrière les flots, Haïfa s'assoit sur le sable et se met à pleurer. C'est alors qu'une mouette blanche qui vole au-dessus des vagues entend les pleurs d'Haïfa. Elle accourt et se met à planer au-dessus d'elle.

« Pourquoi es-tu si triste, Haïfa ? » dit l'oiseau, avant de reprendre de la hauteur.

Haïfa lève la tête et regarde la mouette en essuyant ses larmes. Et quand celle-ci s'approche d'elle de nouveau, elle lui dit :

« Parce que mon grand-père aime une autre fille que moi, une autre Haïfa. Alors il m'a laissée pour aller la rejoindre. »

La mouette pouffe de rire et bat des ailes au-dessus de sa tête.

« Pourquoi te moques-tu de moi, mouette ? dit Haïfa, en colère.

– Parce que l'autre Haïfa n'est pas une petite fille. C'est une ville qui se trouve là-bas, derrière la mer. Elle est belle, comme toi. Et moi aussi, je l'aime. »

Mais Haïfa se lève, toujours en colère, et elle dit :

au cours de l'hiver. »
La mère d'Azur dit :
« Elle n'en pouvait plus de rester assise sur le siège. Alors, elle a marché. Mais je suis sûre que ma fille reviendra. »
Les gens du village décidèrent de préparer quelque chose qui leur rappellerait toujours Azur. Ils se procurèrent des tissus de soie de différentes couleurs, et l'un d'eux proposa :
« Le rouge, c'est pour les joues d'Azur. »
Une femme ajouta :
« Le vert, c'est pour ses yeux. »
La mère reprit :
« Le blanc, c'est pour le cœur d'Azur, immaculé et pur comme les lys de la rivière. »
Une petite fille conclut :
« Et le noir, c'est pour les cheveux d'Azur ! »
Chaque famille cousut un beau drapeau aux quatre couleurs et le fixa avec des fils solides autour de bâtonnets coupés dans des branches d'olivier. Et chaque famille hissa au-dessus de sa maison le drapeau aux quatre couleurs.

C'est ainsi que les couleurs d'Azur : le vert, le rouge, le blanc et le noir, devinrent leurs couleurs. Et les gens du village étaient sûrs qu'Azur reviendrait sonner la cloche si jamais les brigands essayaient de voler l'eau de la source.



qu'elle était loin d'elle.
« Ô mon Dieu, qu'est-il arrivé ? » s'exclama-t-elle.
Elle entendit le bruissement de l'eau lui dire :
« Quand tu t'es endormie, Azur, ton siège a glissé vers l'avant. »
Azur s'écria, voyant que les brigands escaladaient déjà la falaise :
« Que dois-je faire ? »
Le bruissement de l'eau ne répondit pas. Azur tendit le bras autant que ses forces le lui permettaient, pour attraper la corde. En vain. Elle s'écria de nouveau :
« Que dois-je faire ? Ils approchent ! »
Le bruissement de l'eau répondit alors :
« Lève-toi, marche !
– Je ne peux pas !
– Marche avant qu'il ne soit trop tard ! »
Azur appuya ses paumes sur les bords du siège, essaya de se soulever. Ses pieds effleurèrent le sol. Elle essaya, essaya de se mettre debout, mais elle retomba sur le siège. Le bruissement de l'eau dit :
« C'est la dernière occasion de sauver ton village, Azur. Tu ne peux pas hésiter. Tu ne peux pas échouer. »
Azur appuya de nouveau ses paumes sur les bords du siège. Elle trouva davantage de force en pensant aux gens du village et à l'amour qu'ils lui portaient. Elle se souleva. Ses pieds effleurèrent le sol. Elle se mit debout. Ne retomba pas, cette fois-ci. Ses genoux s'animèrent. Son corps s'élança vers l'avant. Elle faillit tomber. Le bruissement de l'eau s'écria :
« Tu ne peux pas tomber. Tu ne le peux pas ! »
Azur résista. Elle se tint debout. Se pencha difficilement, prit ses genoux entre ses mains. Elle poussa de toutes ses forces son pied droit et avança d'un petit pas. Puis d'un deuxième pas avec le pied gauche. Elle regarda les brigands. Ils approchaient. Mais elle avait encore du temps. « Vite, fais vite, Azur ! Cramponne-toi, ô mon pied droit ! Toi aussi, mon pied gauche ! Courage, ô mes mains ! » Azur fit deux pas en avant. Maintenant, elle devait se redresser, étendre son bras vers la corde, la tirer fortement : « Oui, comme ça, agrippe-toi à la corde, Azur, fais-la balancer en avant, en arrière, en avant, en arrière ! Pour que tout le monde entende, les gens de ton village et les gens de tous les villages, qu'ils entendent la cloche ! »
Les gens du village étaient aux champs et ils entendirent la cloche résonner fortement. Ils accoururent tous, portant des pioches, des gourdins et des fusils, et se précipitèrent vers la falaise de la source.
Les brigands n'avaient pas encore atteint la source lorsque les villageois arrivèrent et les attaquèrent. Ils en tuèrent plusieurs, mais d'autres eurent la vie sauve en prenant la fuite.
Les villageois remontèrent à la source. Ils cherchèrent Azur sans la trouver.
« Azur, Azur ! Où es-tu ? »
Ils virent que le siège d'Azur était éloigné de la corde, aperçurent les traces de ses pas se dirigeant du siège vers la cloche. La mère d'Azur s'écria :
« Azur a marché ! Elle a marché ! »
L'écho répondit :
« Azur a marché ! »
Les voix des villageois s'élevèrent :
« Azur a marché ! »
Tout le monde se mit en quête d'Azur, vainement. Après des heures de recherches harassantes, ils s'assirent autour de la source, silencieux et tristes, prêtant l'oreille au bruissement de l'eau. L'un d'eux dit :
« Nous ne savons pas où est allée Azur. Mais ce qui est sûr, c'est qu'elle reviendra. »
Un petit enfant reprit :
« Elle s'est envolée avec les oiseaux blancs qui viennent chez nous l'été. Elle reviendra à nous avec les oiseaux,

« Il y en a de plus petits que moi qui travaillent aux champs alors que je ne peux pas en faire autant. Pourquoi choisit-on, pour garder la source, ceux dont le travail serait plus utile ailleurs ? »
La mère dit :
« Mais ma petite fille... »
Azur la coupa :
« Je sais que je suis incapable de marcher. Mais, maman, si je ne pouvais être utile à rien, pourquoi Dieu m'aurait-il fait venir au monde ? »
Le père dit alors, en étreignant sa fille :
« Tu as raison, bien raison, Azur ! »
Grande fut la joie d'Azur quand les villageois donnèrent leur accord. On décida qu'elle garderait la source une fois tous les quinze jours. Et quand son tour arriva, elle se réveilla plus tôt que les autres jours et regarda par la fenêtre de la petite hutte. Tout dormait encore : les oiseaux, les arbres et les fleurs. Le soleil ne s'était pas encore levé. Mais le ciel se colorait d'une clarté scintillante. Azur contempla les choses et les êtres qui se réveillaient à mesure que l'aurore approchait. Elle écouta avec joie le piaillement des oisillons dans leurs tentatives d'imiter le chant des grands oiseaux. Elle pensa : « Ce jour sera le premier où je m'éloignerai de vous, mes bien-aimés. »
Azur se prépara au départ. Son père aussi, qui la porta tendrement. La mère se chargea du siège d'Azur, un siège tressé avec de l'osier, des branches d'olivier et du lin. Tous les trois se dirigèrent vers la falaise d'où jaillissait la source.
Lorsqu'ils arrivèrent, le père dit, en installant Azur sur le siège :
« Si tu vois un étranger venir d'en bas pour escalader la falaise, tire sur cette corde. La cloche résonnera et tout le monde l'entendra.
– Je le ferai, père », dit Azur, joyeuse.
La mère étreignit sa fille, l'embrassa et lui dit :
« Je t'ai mis dans ce paquet du pain, du fromage, trois pommes et une orange. Et voici un gobelet d'eau près de toi.
– Merci, mère », dit Azur.
Azur resta seule après le départ de ses parents. Elle regarda le village et les champs. C'était un spectacle magnifique. Elle entendit le bruissement de l'eau alors que celle-ci s'élançait entre les rochers et faisait des bulles blanches en dévalant la falaise. Elle dit alors :
« Cette voix ressemble à celle qui m'a parlé l'autre jour, près de la rivière. »
Azur regarda de nouveau les eaux de la source et demanda :
« N'est-ce pas toi qui m'as parlé ? »
Mais le bruissement de l'eau ne répondit pas. Et l'eau continuait à se déverser avec force vers le bas.
Le temps passa. Le soleil était maintenant au zénith. C'était l'heure de manger. Azur croqua une pomme, puis ferma les yeux sur le bruissement de l'eau qui coulait délicatement dans ses oreilles, comme une agréable musique. Elle s'assoupit. Elle plongea dans un rêve délicieux où lui apparurent des oiseaux. Elle se vit elle-même sous forme d'oiseau voguant dans l'espace et se posant sur chaque arbre.
Mais le bruissement de l'eau la tira de son rêve. Il criait :
« Attention, Azur ! Fais attention à ne pas t'endormir, sinon vous perdriez la source sacrée ! »
Azur ouvrit les yeux, apeurée. Elle se mit à scruter les eaux de la source, puis regarda en bas. Elle vit alors des gens à l'aspect étrange qui s'apprêtaient à escalader la falaise.
Azur sut tout de suite que c'étaient les brigands et se dit :
« J'espère qu'il n'est pas trop tard pour avertir les villageois. »
Elle tendit la main vers la corde, mais elle s'aperçut

fille qui a, à son tour, besoin de notre amour et de notre tendresse. »
Azur grandissait. A huit ans, elle était devenue encore plus belle. Quand ses yeux verts se posaient sur les champs, ceux-ci semblaient verdir davantage. L'air se remplissait du gazouillis des oiseaux. Le cœur d'Azur s'épanouissait comme les bourgeons des lys qui poussaient au bord de la rivière. Son visage rosissait, comme si deux pétales de coquelicot avaient fondu sur ses joues. Mais ses jambes ne pouvaient toujours pas la porter d'un endroit à un autre. Les gens du village envoyaient leurs garçons et leurs filles, une fois qu'ils avaient terminé les travaux des champs, pour parler à Azur et lui éviter de se sentir seule. Certains lui apprenaient à déchiffrer l'alphabet et à lire. D'autres lui offraient un peu d'évasion en lui racontant des histoires.
La seule chose qui rendait Azur triste, c'est qu'elle ne pouvait pas travailler comme les autres. Car tous les gens du village, petits et grands, hommes et femmes, garçons et filles, travaillaient ensemble, selon les saisons, aux labours ou à la moisson. A la fin de la saison des moissons, ils organisaient des fêtes et des repas. Les garçons dansaient la *debka*. Les filles chantaient des chansons où revenaient les noms des vaillants héros du village, les gardiens de la source, qui leur procurait l'eau, insufflait la vie aux champs et la grâce au visage des villageois. Mais que pouvait faire Azur ? Elle se mit à réfléchir : « Que puis-je faire ? Et comment ? Moi qui ne possède pas de jambes pour marcher ! »
Les larmes montèrent à ses yeux. Les oiseaux devinrent tristes et s'arrêtèrent de chanter, le bruissement de la rivière s'enroua.
Azur se mit à observer les champs, les villageois penchés sur leur labeur, les abeilles se transportant d'une fleur à l'autre pour butiner le pollen et préparer du miel pour leur royaume. Tout à coup, elle entendit une voix qui ressemblait au bruissement de l'eau : « Azur ! » Elle regarda autour d'elle mais ne vit que la rivière. Elle regarda plus loin, mais ne vit que les champs au-dessus desquels voletaient des oiseaux blancs. Les abeilles poursuivaient leur va-et-vient entre les fleurs.
« Qui m'appelle ? » dit Azur.
Le bruissement de l'eau répondit alors :
« Azur ! Pourquoi n'irais-tu pas te mettre près de ma source pour la garder, au lieu de rester tout le temps assise sous l'olivier ? »
Azur demanda tout étonnée :
« Qui m'appelle ? »
Mais le bruissement de l'eau se tut cette fois-ci et ne répondit plus.
Azur se rappela alors ce que la voix avait proposé et se dit : « Oui, je peux, moi aussi, faire quelque chose. »
Les gens du village avaient l'habitude, depuis les temps anciens, de surveiller à tour de rôle la source, en se tenant au sommet d'une falaise. C'est que des brigands avaient essayé à maintes reprises de s'emparer de la source pour en détourner l'eau vers leurs champs ; ces champs dont, il y a longtemps, ils avaient dépossédé les propriétaires et les avaient chassés.
Les gens du village avaient suspendu une grande cloche en bronze à la branche d'un chêne. Ils avaient fait pendre de la cloche une corde de lin tressé. Ainsi, au cas où les brigands attaqueraient la source, le gardien n'aurait qu'à tirer la corde : les villageois travaillant aux champs entendraient la cloche et accourraient défendre la source et disperser les brigands.
Azur décida alors de s'adresser à son père : les gens du village voudraient-ils l'accepter, elle aussi, comme gardienne de la source ? Quand elle s'en ouvrit à son père, il la serra contre lui en disant :
« Mais tu es encore petite ! »
Elle répondit, les larmes ruisselant de ses beaux yeux :



ZINE AL-ABIDINE AL-HUSSAINI

Né en 1928 à Gaza. Il émigre très tôt en Egypte où il fait ses études et deviendra par la suite journaliste. On compte parmi ses œuvres un roman, des recueils de nouvelles et plusieurs livres de contes pour enfants. Il vit toujours au Caire.

LA GARDIENNE DE LA SOURCE

Dans un petit village à la terre parsemée de coquelicots, de lys et de champignons, un laboureur et sa femme menaient une vie d'amour et de sérénité.

Le couple habitait une petite hutte entourée d'un jardinet planté d'oliviers. Une vigne enveloppait la hutte de ses treilles. Tout près, un plant de jasmin répandait son parfum dans le jardin et jusqu'à la hutte, lors des veillées de printemps et d'été.

Les gens du village aimaient le laboureur et sa femme car ils étaient toujours prêts à rendre service à quiconque s'adressait à eux, et, quand ils avaient fini leurs travaux dans leur petite parcelle de terre, ils allaient aider leurs voisins. Une chose, cependant, les attristait : au cours de toutes ces années, ils n'avaient pas eu l'enfant qui aurait animé leur vie et mis de la joie autour d'eux.

Aussi, chaque fois que les gens du village les voyaient s'en retourner à leur hutte, ils disaient : « Ah, comme ils seraient heureux si un enfant leur naissait ! »

Le vœu des villageois fut exaucé quand le couple eut enfin une fille de toute beauté. Ses yeux s'illuminaient du vert de l'olivier et ses joues brillaient de l'incarnat des coquelicots parsemés dans les blés dorés. Quant à ses cheveux, ils étaient tout noirs et, à chaque saute de vent, ils ondulaient comme le cours transparent de la rivière qui bordait le village. Les parents eurent du mal à choisir un nom qui convienne à leur fille. Mais les femmes du village, qui se prirent d'amour pour l'enfant dès qu'elles la virent, dirent :

« La naissance de cette fille a été de bon augure pour tous les habitants du village. Le jour même de sa naissance, les fruits de la terre se sont accrus comme jamais auparavant. »

C'est pourquoi elles décidèrent qu'elle porterait un nom que jamais fille n'avait porté avant elle. Après mûre réflexion, elles trouvèrent enfin ce joli nom. Elles allèrent voir les parents et leur annoncèrent qu'elles avaient choisi « Azur ».

Une première année de la vie d'Azur s'écoula. La mère remarqua avec inquiétude que les jambes de sa fille ne s'étaient pas développées normalement. Elles étaient restées aussi fines qu'au jour de sa naissance. Elle en conclut qu'Azur n'allait pas pouvoir jouer ni courir avec les petites filles du village. Tout le monde fut triste et chacun essaya, comme il le put, de consoler les parents. Mais le père, qui avait pris son mal en patience, disait :

« Dieu savait combien grand était notre besoin d'un enfant. Il a exaucé notre vœu et nous a envoyé une jolie

Abbas, lui, n'avait pas bougé le petit doigt. L'autre chasseur mit la perdrix tuée dans sa gibecière. Puis il reprit le perdreau et se mit à le remuer pour que ce dernier batte des ailes et crie.
Et la même chose se reproduisit. Une deuxième perdrix tomba, tout ensanglantée.
Abbas ne bougeait toujours pas. Il regardait le gros perdreau apprivoisé et un étrange sentiment s'emparait de lui.
« Maintenant, Abbas, tu sais pourquoi je rapporte une bonne chasse », dit l'autre en montrant son perdreau domestique. Puis il ajouta :
« Je ne l'ai pas attrapé tout petit. Une fois, quand je chassais, j'ai tiré sur lui et il est tombé. Ma balle ne l'avait pas atteint. Il est tombé de peur, apparemment. Je l'ai pris et je lui ai laissé la vie sauve car j'avais des projets pour lui. Jour après jour, je l'ai gavé jusqu'à ce qu'il devienne incapable de voler. Quand je vais à la chasse, je l'amène avec moi et je n'ai pas besoin de chercher les perdrix. C'est lui qui les convoque ! A son cri, elles s'approchent. Tu as compris ?
– Oui, j'ai compris. Mais ton procédé n'est pas loyal.
– Qu'importe ! Le tout n'est-il pas de rapporter une bonne chasse ? Et c'est un procédé efficace. N'est-ce pas ? »
Le regard d'Abbas allait de son voisin au perdreau. L'oiseau semblait sourire bêtement. D'un mouvement instinctif, Abbas tourna son fusil vers le perdreau et appuya sur la gâchette, mettant dans ce geste tout le dégoût qu'il ressentait. La balle partit alors qu'Abbas balbutiait encore :
« C'est un traître aux siens ! »
Le perdreau ne manifesta aucune douleur au moment où il tombait, noyé dans son sang. Il mourut calmement, en souriant toujours bêtement, comme s'il quémandait un peu de pitié.







TAWFIQ ZAYYAD

Né en 1932 à Nazareth où il vit encore de nos jours et dont il est le maire depuis les années soixante-dix. Son œuvre est essentiellement poétique. Il a traduit en arabe plusieurs auteurs russes ainsi que les œuvres du poète turc Nazim Hikmet.

LE CHASSEUR ET LE PERDREAU

Abbas était le chasseur le plus réputé de la région. Quand des concours de tir se tenaient sur la place du marché appelé « marché du Lundi », les autres chasseurs concouraient pour la deuxième place, sachant que la première était réservée à Abbas.

Quand son tour venait, une foule dense s'attroupait à ses côtés. Il suffisait qu'il pointe son fusil et vise pour que tout le monde retienne son souffle. Et, à l'annonce du résultat, des clameurs de joie fusaient.

La chasse était le seul passe-temps d'Abbas. Pour lui, de tous les gibiers, seules les perdrix en valaient la peine. Un jour d'entre les jours, alors qu'il rentrait chez lui avec son fusil, Abbas rencontra l'un de ses voisins qui revenait, lui aussi, de la chasse. Il s'aperçut que cet homme avait tiré deux fois plus d'oiseaux que lui. Bien sûr, il se réjouit de la chance de son voisin et l'en félicita. Mais la chose l'étonna fort, car ce n'était qu'un chasseur bien ordinaire.

Il décida donc de lui rendre visite pour savoir s'il y avait là quelque secret. Il prit des gâteaux en guise de cadeau et s'en alla chez son voisin. Celui-ci le reçut avec réserve, visiblement embarrassé. Après les salutations, le dialogue suivant se déroula entre eux :

« Quel est le plus habile et le plus célèbre des chasseurs de la région ? demanda Abbas à son voisin.

– Nul doute que c'est toi, répondit le voisin, sans hésiter.

– Alors, dis-moi, comment se fait-il que tu reviennes de la chasse avec davantage de perdrix que moi ? »

Le voisin ne put contenir un petit rire semblable au sifflement d'une vipère. Puis il dit :

« Tu veux le savoir ?

– Oui. Je suis très content pour toi, mais je voudrais comprendre.

– Bien. Viens avec moi demain et tu comprendras. »

Le lendemain matin, ils partirent ensemble à la chasse. Quand ils furent arrivés à l'endroit choisi, le voisin sortit d'un sac qu'il portait à l'épaule un perdreau vivant. Abbas regarda le perdreau, tout intrigué, et demanda :

« Pourquoi avoir apporté ce perdreau ?

– Attends et tu comprendras », répondit le voisin. Puis il remua le perdreau. Celui-ci se mit à crier et à battre des ailes, mais avec beaucoup de difficulté tant il était gras. Presque aussitôt, des cris se firent entendre de tous côtés, et des perdrix s'approchèrent des chasseurs.

« Allons-y », dit le voisin à Abbas. Et sans tarder il prit son fusil, visa l'un des oiseaux qui s'était un peu trop approché et appuya sur la gâchette. En même temps que la détonation, une perdrix tomba, perdant tout son sang.



YAHIA YAKHLEF

Né à Samkh, près de Tibériade, en 1944. Il quitte avec ses parents la Palestine en 1948, pour se réfugier en Jordanie. Il vivra par la suite en Syrie, au Liban et en Algérie, avant de se fixer à Tunis. Son œuvre comporte plusieurs romans et recueils de nouvelles.

LA TIGE DE ROSEAU

Les vents forts soufflèrent. Ils arrachèrent de la terre la tige de roseau et l'emportèrent, loin.
C'était une tige creuse, évidée, qui se déplaçait vivement d'un endroit à l'autre.
Elle voyait que les arbres portaient des fruits délicieux
que les oiseaux étaient en train de chanter
que le fleuve abreuvait les gens
les nuages fondaient et irriguaient les cultures.
Elle pensa alors que tous étaient utiles, sauf elle, et souhaita devenir utile à son tour.
Les vents la portèrent enfin dans un champ. Le propriétaire du champ labourait la terre avec une charrue tirée par un bœuf. Lorsqu'il aperçut la tige de roseau, il se dit : « Ce roseau me sera utile. Je pourrai, si le bœuf s'arrête de travailler, l'en frapper pour qu'il se remette en marche. »
C'est ainsi que la tige de roseau se transforma en bâton dans la main du propriétaire du champ. Cela l'attrista car elle ne voulait faire de mal à personne.
Aussi, quand les vents soufflèrent, la tige de roseau partit-elle en leur compagnie vers un autre lieu.
Les vents la firent tomber devant un chasseur d'oiseaux. Celui-ci courut vers elle et s'en empara en disant : « Demain, je couperai cette tige et j'en ferai une cage où je mettrai les oiseaux vivants que je chasse. »
La tige de roseau s'attrista car elle allait devenir une prison pour les oiseaux alors qu'elle ne voulait faire de mal à personne.
Mais, dès que le chasseur l'eut déposée à terre, les vents l'emportèrent de nouveau vers un autre lieu.
Ils la jetèrent devant des enfants qui jouaient sur la place du village. Les enfants s'en emparèrent. Ils se mirent à la monter comme si c'était un cheval.
La tige de roseau s'en réjouit. La voilà qui mettait la joie au cœur des enfants. Mais son bonheur ne dura pas car un enfant l'écrasa sans le faire exprès, et la cassa en deux.
La tige de roseau cassée s'attrista car elle n'était plus utile.
Or, quand les enfants rentrèrent chez eux, un berger vint. Il aperçut la tige de roseau cassée et triste. Il se pencha et en ramassa un bout.
Le berger arriva à sa maison. Il prit un couteau et se mit à tailler les deux extrémités du bout de tige. Puis il lui fit plusieurs yeux. Une heure à peine venait de s'écouler et la tige de roseau cassée s'était transformée en une flûte joliment façonnée.
Le berger prit délicatement entre ses mains la flûte et en tira un air joyeux.
Alors, la tige de roseau ressentit une immense joie. Elle était devenue utile, enfin.



Et, à la nuit tombée, ils devraient s'emparer de tout homme porteur d'une petite lampe et l'amener immédiatement au palais.
Le soir venu, la petite princesse se mit à guetter devant sa fenêtre et à attendre les hommes porteurs de petites lampes...
Et voilà qu'un étrange spectacle s'offrit à ses yeux. Dans le lointain horizon encore obscur, des milliers d'hommes portant de petites lampes venaient de toutes les directions et s'avançaient vers le palais.
Peu après, ils atteignirent les portes du palais, qui étaient fermées, et s'y attroupèrent.
A chaque instant, le flot des porteurs de lampes grossissait, mais ils ne pouvaient entrer au palais car les portes étaient trop étroites.
La princesse demanda alors à ses serviteurs de détruire les hautes murailles et d'élargir les portes, afin que tout le monde puisse entrer dans la cour.
Ensuite, elle quitta sa chambre et descendit, accompagnée du commandant de la garde qui devait lui désigner le vieil homme. Quand elle arriva dans la cour, la lumière étincelait comme un soleil tant il y avait d'hommes et de lampes. Le commandant de la garde dit :
« Princesse, je ne peux pas reconnaître le vieillard car tous ces visages se ressemblent. »
La princesse avait du mal à ouvrir les yeux car la lumière était intense.
Elle dit au commandant de la garde :
« Je ne pouvais pas imaginer qu'il y avait un tel nombre de lampes dans mon royaume !
– Les gens ont peur des voleurs, expliqua le commandant.
– Non, rétorqua le sage. Quand la nuit tombe, chaque homme porte une petite lampe pour reconnaître son chemin. »
Il se tourna vers la princesse et ajouta :
« Peux-tu porter toutes ces lampes en même temps ?
– Bien sûr que non ! répondit la princesse.
– Il en va de même pour le soleil, poursuivit le sage. Il est trop grand pour qu'un seul homme ou une seule femme puisse l'attraper.
– Maintenant, j'ai tout compris, dit la princesse. Les petites lampes réunies sont le soleil auquel pensait mon père !
– Oui. Mais regarde là-bas », reprit le sage en indiquant la fenêtre.

Le soleil commençait à se lever et ses rayons pénétraient dans le palais.
La princesse s'écria :
« C'est extraordinaire. C'est la première fois que cela arrive.
– Oui, dit le sage. Cela se produit pour la première fois car tu as abattu les murailles et les portes. L'aurais-tu oublié ? Ce sont ces murailles qui voilaient les rayons du soleil et les empêchaient de pénétrer dans le palais.»
Un moment après, le sage déposa sur la tête de la princesse la couronne incrustée de pierreries et lui dit :
« Te voilà reine, car tu as exécuté le testament de ton père et réussi à amener le soleil au palais. »





En peu de jours, tout le monde sut que la princesse voulait amener le soleil au palais. Mais personne ne put l'aider. Certains décidèrent que la princesse était folle car elle désirait l'impossible, d'autres en conclurent qu'elle était sage car elle voulait accomplir l'impossible. Mais personne ne fut en mesure de l'aider.
Le lendemain matin, le vieux sage se présenta devant la princesse et l'informa que le délai qui lui était consenti allait bientôt prendre fin. Il lui expliqua cela en ces termes : « Ton père le roi m'avait demandé, avant sa mort, d'allumer un grand cierge dès qu'il aurait rendu son dernier souffle. Et si le cierge venait à fondre avant que tu n'aies amené le soleil, ta punition serait exécutée. »
Lorsque le sage eut quitté la chambre, la princesse conçut une grande tristesse. Elle sut qu'elle ne pourrait pas devenir reine et elle se mit à s'imaginer parée de ces atours royaux qu'elle ne revêtirait jamais.
Pendant qu'elle était plongée dans son chagrin, un vieil homme essayait d'entrer au palais. Mais les gardes l'en empêchaient et utilisaient divers moyens pour le chasser. Toutefois, le vieillard était têtu.
La princesse observait la scène de sa fenêtre. Elle entendit le vieillard crier aux gardes :
« Je veux entrer pour aider la princesse ! »
Et les gardes de lui répondre :
« Comment peux-tu l'aider, toi, un vieillard décrépit ! »
La voix du vieillard revenait en force :
« Bon... Demandez-lui alors comment, si un vieil homme ne peut pas entrer dans son palais, elle peut espérer y faire entrer le soleil. »
Sur ce il leur tourna le dos et s'en alla.
La princesse essaya de l'appeler, mais il avait déjà disparu. Et quand elle demanda aux gardes d'aller le chercher, le vieillard était déjà loin, loin.
La princesse regagna sa chambre, accablée de tristesse.
Elle réfléchissait à ce que le vieillard avait dit aux gardes. Mais le sens de ses paroles lui échappait.
Elle se décida alors à convoquer le commandant de la garde. C'était un homme robuste qui servait le palais depuis plus de dix ans. Lorsqu'il entra dans la chambre, elle l'interrogea sur le vieillard chassé par les gardes, voulant savoir s'il était déjà venu au palais. Le commandant de la garde répondit :
« Le vieil homme vient chaque soir, mais les gardes l'empêchent d'entrer car ils pensent qu'il est fou.
– Décris-le-moi, demanda la princesse.
– C'est un homme pauvre qui porte toujours une petite lampe, répondit le commandant.
– Si ce vieil homme revient demain, qu'on le laisse entrer », dit la princesse.
Mais le vieil homme ne revint pas le lendemain et la princesse se laissa aller de nouveau à son désespoir.
Alors qu'elle pleurait dans sa chambre, elle aperçut une autre feuille glissée sous sa porte. Elle courut la prendre, la déplia et y lut : « Le temps presse. Le grand cierge est sur le point de se consumer. Les pleurs ni la tristesse ne résolvent les problèmes. »
La petite princesse sentit qu'elle devait absolument faire quelque chose, sinon elle allait passer sa vie enfermée dans un coffre.
Elle convoqua sur-le-champ le commandant de la garde et lui dit :
« Je veux que vous m'ameniez au palais tout homme, où qu'il soit dans le royaume, qui porte une petite lampe. »
Surpris, le commandant dit :
« Tout cela pour ce vieux fou ?
– Je dois consulter ce vieillard. Peut-être détient-il la solution », répondit la princesse.

Tôt le matin, le commandant envoya les gardes aux quatre coins du royaume avec l'ordre d'attendre le soir.



GHASSANE KANAFANI

Né en 1936 à Acre. Il s'exile en 1948 pour vivre en Syrie, puis au Koweït, enfin au Liban. Il est l'auteur de plusieurs romans, recueils de nouvelles et études sur la culture palestinienne. Il a été aussi directeur d'un grand journal palestinien. Le 8 juin 1972, il est assassiné à Beyrouth par les services secrets israéliens.

LA PETITE LAMPE

La ville se réveilla un matin à l'annonce d'une nouvelle affligeante : le bon vieux roi était mort, ce roi tant aimé qui avait, durant toute sa vie, gouverné avec justice !
Les gens étaient d'autant plus tristes que le roi n'avait laissé, pour lui succéder, qu'une petite fille incapable de gouverner.
Mais il avait laissé aussi, à l'adresse de sa fille, un testament très court : « Pour devenir reine, tu devras amener le soleil au palais. Et si tu n'y réussis pas, tu passeras ta vie enfermée dans un coffre en bois. Telle sera ta punition. »
Après avoir lu le testament, la petite princesse convoqua le sage du palais. Elle l'informa que son père lui avait confié une mission difficile et qu'elle ne voulait nullement devenir reine.
Mais le vieux sage lui dit : « Les lois du royaume qui sont consignées depuis les temps anciens interdisent au prince ou à la princesse de refuser le pouvoir. » Et il ajouta : « La fille du roi ne peut qu'être princesse... Notre royaume a vécu dans un bonheur permanent car chacun de ses habitants connaît ses devoirs et les remplit sans les fuir. Et ton père fut sage en t'ordonnant de faire entrer le soleil au palais ou de passer ta vie enfermée dans un coffre. »
Le lendemain matin, la princesse décida d'escalader la haute montagne près de laquelle le soleil passait chaque jour.
Elle demanda au sage ce qu'il pensait de son projet. Il lui répondit : « Petite princesse, tu dois amener le soleil sans l'aide de personne. »
C'est ainsi que la princesse entreprit d'escalader la haute montagne. Mais, lorsqu'elle en eut atteint le sommet, elle se rendit compte que le soleil était encore loin et qu'il était impossible à un être humain de l'attraper.
Triste, elle revint au palais, s'enferma à clé dans sa chambre et se mit à pleurer.

Deux jours plus tard, la princesse affligée vit qu'on glissait une petite feuille sous sa porte. Elle courut la prendre et y lut la courte phrase suivante : « Ce n'est pas dans une chambre close que tu pourras trouver le soleil. »
La princesse fut perplexe car elle ignorait qui pouvait être l'auteur de ce billet. Mais elle décida de continuer à chercher le soleil même si elle devait pour cela escalader chaque jour la montagne.
En même temps, elle fit apposer sur les murailles du palais un avis où elle disait que toute personne pouvant l'aider à faire entrer le soleil au palais recevrait une récompense en pierres précieuses.

MOU'IN BSISSOU

Né en 1937 à Gaza. Poète et dramaturge. Il passe une grande partie des années cinquante en prison. Puis il s'exile, d'abord au Caire, ensuite à Bagdad, Beyrouth, Damas, Moscou, enfin à Londres où il meurt subitement en 1984.

LE RETOUR DE L'OISEAU

Et les oiseaux s'élancèrent, s'en revenant à leurs nids,
après avoir rempli leur gésier de blé.
Brusquement, la tempête se leva, les blancs nuages virèrent au noir.
Et les vents frappèrent de plein fouet l'un des oiseaux qui tomba,
pendant que toutes ses plumes s'éparpillaient dans l'air.
L'oiseau, nu, tomba parmi les arbres.
Sur ses ailes, sur sa poitrine, pas une plume ne restait.
Alors vinrent des rapaces qui se mirent
à planer au-dessus de l'oiseau,
bec en avant, se préparant à fondre sur lui.
Et l'oiseau nu
s'apprêta à les affronter
pendant que ses frères le cherchaient partout.
Voilà qu'un des rapaces allait frapper de son bec l'oiseau nu
lorsque ses compagnons, enfin, le trouvèrent, se battant seul sous un arbre.
Ils le rejoignirent, l'entourèrent et mirent en fuite les rapaces.
Et chaque oiseau enfonça son bec dans son aile et en arracha une plume.
Et chaque oiseau planta sa plume, qui dans la poitrine, qui dans les ailes de l'oiseau nu.
Et l'oiseau nu se couvrit de plumes.
Il étendit ses ailes et, avec ses compagnons, il reprit son vol.



Les oiseaux du retour

contes de Palestine (bilingues)

traduits par Jocelyne et Abdellatif Laâbi



Zine al-Abidine Al-Hussaïni / Layana Badr / Mou'in Bsissou
Tawfiq Fayyad / Ghassane Kanafani / Yahia Yakhlef / Tawfiq Zayyad

images de Laura Rosano

Éditions Messidor / La Farandole
146, rue du Faubourg-Poissonnière, 75010 Paris

ACHEVÉ D'IMPRIMER EN SEPTEMBRE 1991
POUR LE COMPTE DES ÉDITIONS MESSIDOR / LA FARANDOLE
SUR LES PRESSES DE L'IMPRIMERIE SADAG À BELLEGRADE (AIN)
DÉPÔT LÉGAL : SEPTEMBRE 1991
LOI N° 49.956 DU 16.07.49
SUR LES PUBLICATIONS DESTINÉES À LA JEUNESSE

NUMÉRO D'ÉDITION : 3128
ISBN 2-209-06589-5
ISSN 0297-3944
291036N1



Les oiseaux du retour

contes de Palestine (bilingues)

Zine al-Abidine Al-Hussaïni / Layana Badr / Mou'in Bsissou
Tawfiq Fayyad / Ghassane Kanafani / Yahia Yakhlef / Tawfiq Zayyad

images de Laura Rosano

parolimages